

بسم الله الرحمن الرحيم

رؤية القرآن للعالم ودلالاتها على مفهوم الاستخلاف

(بروفيسور محمد الحسن بريمة إبراهيم-2014)

(السودان - جامعة الجزيرة - معهد إسلام المعرفة)

مقدمة:

سوف نحاول في هذا البحث استتال المضامين التي يأتلف منها مفهوم الاستخلاف من "رؤية القرآن للعالم"؛ وهي رؤية استتبطها هذا الباحث من القرآن الكريم منذ تسعينات القرن الماضي، تأسيسا على مفهوم "رؤية العالم"، وأصبحت أساسا لكل بحوثه المنشورة. ولأن هذا الإطار النظري ظل هو الأساس الذي أنطلق منه فقد صار لزاما عليّ أن أقدمه، في معناه ومبناه، بين يدي كل موضوع بحثي أطرقه، مما يعني أن من سبق له الاطلاع عليه لا يلزمه تجرّع مرارة قراءته مرة أخرى في هذا البحث، بل يمكنه الانتقال مباشرة إلى الجزء الأخير من البحث، وهو المتعلق بمفهوم الاستخلاف. أما الذين لم يسبق لهم الإلمام بهذا الإطار النظري فلا مناص لهم من ابتدار البحث بقراءته لأن كثيرا من القضايا التي سوف نطرقها في مفهوم الاستخلاف تستند إلى "رؤية القرآن للعالم" هذه.

إذن سوف يتكوّن هذا البحث من أربعة محاور: المحور الأول؛ نتاول فيه بإيجاز مفهوم "رؤية العالم" من حيث أهميته وتعريفه وأهم مضامينه، المحور الثاني؛ ويتناول مفهوم "الفطرة" في القرآن الكريم للوقوف على حقيقة الإنسان المستخلف، كما يراها الباحث من خلال النصوص، المحور الثالث؛ ويجمال "رؤية القرآن للعالم"، والمحور الرابع؛ يتعلق باستتال مضامين مفهوم الاستخلاف مما سبق.

1- مفهوم رؤية العالم: الأهمية، التعريف والقضايا

هذا الجزء يحتوي على تلخيص لأهم القضايا التي تتعلق بمفهوم "رؤية العالم" في الأدبيات الغربية حيث نشأ هذا المفهوم وتطور وتبلور كأحد أهم المفاهيم المعرفية ذات الخصوبة المنهجية، وتم توظيفه في كافة الحقول المعرفية المعروفة بما في ذلك الحقل الديني المسيحي، ولا يزال يزداد في الأهمية وفي استيراده وتوظيفه في بيئات حضارية مختلفة منها الإسلام¹. وقد رأيت أن أستعين بمقتطفات من كتابات بعض علماء المسلمين ممن كان لهم اهتمام بالمفهوم للتدليل على الحاجة إلى توظيفه في الإطار المعرفي الإسلامي، وأهمية ذلك. وانحصرت هذه المقتطفات في القسم (1.1) فقط.

1.1- لماذا نحتاج إلى رؤية العالم؟

يعمل علماء الغرب المهتمون بقضية "رؤية العالم" أهمية المفهوم والحاجة الملحة إلى البحث فيه كمجال معرفي بأن أحد أكبر المشاكل التي تواجه مجتمعات اليوم هي الآثار الناجمة عن التغيير الشامل والمتسارع على النفس البشرية؛ فلا العقول الفردية ولا الثقافات الجمعية بقادرة على التعامل مع التعقيدات المتنامية في الحياة وأنماط التغيير التي لا يمكن التنبؤ بها. إن الضغوط والاحباطات وعدم اليقين في تزايد، والعقول مثقلة بالمعلومات، والعلم يتشظى، والقيم تتآكل، ويتم التأكيد على التطورات السالبة وتهمل التطورات الإيجابية.

النتيجة هي خلق مناخ من العدمية والقلق واليأس، ولم يعد لحكمة وخبرات الماضي أثر على الحاضر، بينما لا نملك رؤية واضحة للمستقبل. لم يعد هناك شيء يمكن أن يقود ويوجه أفعال إنسان اليوم.

¹ - أنظر في هذا الخصوص المراجع الآتية: World Views: From Fragmentation to Integration, by Aerts, D., Apostel, L., (Internet edition- 2007). Worldview: The History of a Concept, Naugle, D. (2002), Wm. B. Eerdmans Publishing Co., Worldview: History, Theology, Implications, by David K. Naugle, (internet). David Naugle on Worldviews, by Dale Cannon, in " Tradition and Discovery: The Polanyi Society Periodical, (33:1). كما يعتبر كتاب سيد قطب: "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" من أوائل الكتب التي أذنت باستيراد المفهوم إلى الحقل المعرفي الإسلامي.

العالم في حاجة إلى إطار مرجعي يربط كل شيءٍ بعضه ببعض بحيث يمكننا من فهم المجتمع؛ فهم العالم ومكان الإنسان فيه، ويعيننا على اتخاذ القرارات الحاسمة التي تشكل مستقبلنا. هذا الإطار المرجعي يؤلف بين أنماط الحكمة التي أنتجتها العلوم والفلسفات والأديان، ولا يركز على جزئية محدودة من الحقيقة، بل لابد أن يعطينا الحقيقة كلها. ولابد أن يعيننا مثل هذا الإطار على فهم ومن ثمّ التعامل مع التعقيدات والتغيير. مثل هذا الإطار التصوري يمكن تسميته "رؤية العالم" (Worldview).

ويؤكد العلماء المسلمون من ذوي الاهتمام بالقضايا الكلية للأمة الإسلامية ذات الأهمية لمفهوم رؤية العالم والبحث فيه في الإطار الإسلامي، فيقول الدكتور فتحي حسن ملكاوي:

" إن كل صور السلوك الإنساني يمكن في النهاية إرجاعها إلى رؤية العالم. وهي نتيجة كافية بحد ذاتها للكشف عن أهمية رؤية العالم في الحياة الفردية والاجتماعية والنشاط العلمي. وحسب هذه النتيجة نستطيع أن نوكد الدور المركزي لرؤية العالم في أعمالنا، دون أن نقلل من أهمية العوامل الأخرى مثل نفسية الفرد والمحيط المادي والاجتماعي. ولكن من الناحية المعرفية فإن رؤية العالم أكثر أهمية بكثير من أي عناصر أخرى ذات علاقة بالسلوك الإنساني، لأنها الإطار الوحيد الذي يمارس العقل الإنساني فيه عمله لاكتساب المعرفة. ولذلك فإن رؤية العالم هي الأساس لأي نظرية معرفة وأي جهد لاكتسابها أو توظيفها. إن وضوح الرؤية الكونية وتماسكها يولد طاقة وحماسا للحصول على المعرفة، وهمة عالية للإبداع والاكتشاف، وستكون نتائج بحث العلماء ومكتشفاتهم منسجمة مع معتقداتهم. ولذلك فإن تشوّه الرؤية الكونية لدى العلماء والطلبة في مجتمعاتنا (المجتمعات الإسلامية) لا يوفر لهم ذلك الحماس والهمة العالية، وأصبح البديل هو انتحال الأعداء وضياح الوقت وخور العزيمة، وفي أحسن الأحوال تكرار معارف الآخرين، دون استيعابها وتوظيفها.

ويتداخل مفهوم رؤية العالم في مختلف حقول المعرفة: في الدين، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية مثل الطب والهندسة...إلخ. وهي نفسها الأسئلة التي انشغلت بها الفلسفة منذ بداية عهد الإنسان بميادينها. وهي المحتوى الأساسي لفلسفة أي علم من العلوم الحديثة الذي يؤثر في تشكيل نظريات هذه العلوم ومناهج البحث فيها....

إن وظيفة رؤية العالم في الأساس هو تزويدنا بالإطار العام الذي نفهم به كل شيء ونفهم أنفسنا أيضا، وجعل فهمنا ضمن كل موحد، فكلما حاولنا أن نكون فهما معينا أو نصوغ نظرية لتفسير شيء ما، فإننا بالضرورة وبطبيعة عمل العقل نستخدم رؤيتنا للعالم. ولذلك فإن وظيفة رؤية العالم هي وظيفة معرفية. ودور المفكر المسلم المعاصر لا يقتصر على ضرورة استخدام رؤية العالم بوصفها وحدة

تحليل للأفكار والمواقف والأشخاص والمؤسسات، ليعرف أين وكيف تختلف رؤيتنا للعالم عن الرؤى الأخرى، بل عليه أن يجعل الرؤية الإسلامية للعالم معروفة لأصحاب الرؤى الأخرى، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة".²

ويقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان:

"ومع ذلك فإن كثيرا من الأمم أمكنهم أن يلحقوا، بل أن يتفوقوا وبيزوا كثيرا من بلاد الغرب وإنجازاته وإبداعاته المادية، أما الشعوب الإسلامية فإنها - مع كل الانبهار والتقليد والمتابعة لأوروبا والغرب في كل وجوه الحياة المدنية وغير المدنية والعسكرية والاقتصادية والسياسية - لم تنته إلا إلى محاكاة قاصرة شكلية، وإلا إلى مزيد من التخلف والقصور والمعاناة والمظالم، وإلا إلى اتساع الهوة بين عالمنا وعالمهم.

وبعد هذه القرون من محاولات التقليد والمحاكاة الفاشلة أصبح واضحا كوضوح الشمس أنه مهما توافرت الوسائل واشتدت المعاناة فإنه لن يتبدل الحال، ولن تستخدم الوسائل، ولن تستقيم الأمور ويعتدل الميزان، إذا لم تكن هناك رؤية كونية حضارية تعطي الإنسان المسلم معنى حقيقيا إيجابيا للوجود، وغاية وهدفا دافعا لهذا الوجود، تكون بمنزلة المحرك والدافع للفعل والعطاء والحركة الإيمانية الإصلاحية.

هنا أدركت أن إشكالية الرؤية التي تحدد الغايات وتوفر الدافع هي الأساس الأول والأكبر لكل فعل وحراك إنساني وحضاري، وما لم يكن هناك رؤية كونية حضارية إيجابية توفر الغاية والدافع، فلن تتحرك الأمة، ولن يتحرك الإنسان، ولن تفيد الآلات والأدوات والوسائل والتهديدات والإرشادات والنصائح، مهما كانت وفيرة، ومهما كانت جيدة وفعالة، مثلها في ذلك مثل آلة مفككة إلى قطع، فبالرغم من أن كل جزء منها غال وثمين، وفي حالة جيدة، نهتم به ونقدره، فإنه لن يؤدي مهمته، ولن يثمر إنتاجا، إذا لم يوضع في رؤية كيانه الكلي القادر على الإنتاج والحركة.

بل لعل أبلغ من ذلك حال الألواف من حملة الشهادات العليا في منهجيات البحث العلمي، وفي علوم التربية، الذين مع سواهم من ألواف الجامعيين المتخصصين، لافتقادنا الرؤية والدافعية، لم تنفعنا آلياتهم ولا أدواتهم ولا فنياتهم شيئا لتحريك الأمة ودفعها إلى الفعل والحركة؛ لأن الفعل والحركة يرجعان إلى الرؤية والغاية والدافع الذي هو الجوهر والمحرك، فمن لا رؤية له ولا غاية ولا مقصد فإنه لن يتحرك مهما توافرت له المعلومات والوسائل والآليات، ولن يفيد منها، ولن يحسن استخدامها، مثله في ذلك مثل التاجر ورجل الأعمال حين تحدثه في محاضرة علمية قيمة عن كشف أثري أو مخطوطة نادرة، ومثله في ذلك أكاديمي في علم الحشرات أو الأفلاك حين تحدثه عن فرص جديدة في عالم التجارة والأعمال؛ فكل واحد منهما لن يحركه إلا ما له فيه غاية وهدف.

² - " رؤية العالم والعلوم الاجتماعية؛ د. فتحي حسن ملكاوي؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

وهنا وجدت أن عليّ أن أعطي موضوع الرؤية الكونية حقه من العناية والاهتمام، لعل ذلك يفيد في أن تستعيد الأمة دوافعها وغاياتها وحراكها الإسلامي الإيماري الحضاري الخَيْر، وفي أن تستعيد بذلك قيادتها وريادتها للحضارة الإنسانية، على ضوء رسالتها الحضارية الحياتية الخيرة المقدسة، لتستنقذ ذاتها، وتستنقذ الحضارة الإنسانية من ورائها".³

وقبلهم أكد الأستاذ الشهيد سيد قطب ذات الأهمية لمفهوم رؤية العالم، ومن ثم رؤية الإسلام للعالم، أو "خصائص التصور الإسلامي" بتعبيره هو، إذ يقول:

"تحديد خصائص التصور الإسلامي ومقوماته مسألة ضرورية لأسباب كثيرة:

ضرورية لأنه لا بد للمسلم من تفسير شامل للوجود يتعامل على أساسه مع هذا الوجود. لا بد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان) وما بينها جميعا من تعامل وارتباط. وضرورية لأنه لا بد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني، فمن هذه المعرفة يتبين دور "الإنسان" في "الكون"، وحدود اختصاصاته كذلك، وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعا.

وضرورية لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني، يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل، ولا بد من أن ينبثق منه انبثاقا ذاتيا وإلا كان نظاما مفتعلا، قريب الجذور، سريع الذبول، والفترة التي يقدر له فيها البقاء هي فترة شقاء "للإنسان"، كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية، وحاجات "الإنسان" الحقيقية! الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها، بلا استثناء، وبخاصة في الأمم التي تسمى "متقدمة".

وضرورية لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة، والمناهج الضالة، والتصورات الضالة - وهو ما تعاني اليوم مثله مع اختلاف في الصور والأشكال. وإدراك المسلم لطبيعة التصور الإسلامي، وخصائصه ومقوماته، هو الذي يكفل له أن يكون عنصرا "صالحا" في بناء هذه الأمة، ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز، وعنصرا "قادرا" على القيادة والإنقاذ، فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى، إلى جانب النظام الواقعي

2- "الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني"؛ أ.د. عبد الحميد أبو سليمان؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي (1429/8/8 هـ - 2008/8/9 م).

الذى ينبثق منه، ويقوم على أساسه، ويتناول النشاط الفردي كله، والنشاط الجماعي كله، في شتى حقول النشاط الإنساني⁴.

2.1- تعريفات مختلفة لرؤية العالم

1.2.1- تعريف فلسفي

رؤية العالم عبارة عن زمرة من التصنيفات (Categories) العقلية تنشأ من التجارب الحياتية العميقة، وتحدد بصورة أساسية الطريقة التي يفهم بها الإنسان ويحس ويستجيب بالفعل (Action) لما يرى أنه العالم المحيط به، وما يثيره من صنوف ألغاز الحياة.

2.2.1- تعريف ديني

رؤية العالم هي التزام، توجهات أساسية للقلب، يمكن التعبير عنها في شكل قصة، أو في شكل افتراضات قبلية- افتراضات قد تكون صحيحة كلياً، أو جزئياً، أو كاذبة تماماً، نحملها في الوعي، أو في اللاوعي، في اتساق، أو في غير اتساق- عما تتكوّن منه الحقيقة الجوهرية للواقع، وتؤسس للطريقة التي بها نحيا ونتحرك ونحقق ذاتنا.

يجب التأكيد على الآتي في هذا التعريف:

1/ رؤية العالم كالتزام (Commitment)؛ ويعني ذلك أنها تسكن في أعماق الإنسان، متجاوزة الأبعاد الفكرية واللغوية. إنها أمر يتعلق بالروح، وهي توجهات روحية أكثر منها عقلية.

2/ رؤية العالم كتوجهات قبلية؛ حيث يتضمن مفهوم القلب أبعاد الحكمة، العاطفة، الرغبة والإرادة، والأبعاد الروحية والفكرية.

رؤية العالم إذن مستقرها القلب باعتباره جوهر الإنسان. لذلك فإن رؤية العالم تعتبر في عداد القبليات المستقرة في منطقة اللاوعي ولكنها توجه العقل الواعي، فنحن نفكر من خلال رؤيتنا للعالم، وبسبب رؤيتنا للعالم، وليس حول رؤيتنا للعالم.

⁴ - "خصائص التصور الإسلامي وضوابطه"؛ سيد قطب؛ نسخة بالإنترنت.

- 3/ رواية رؤية العالم في شكل قصّة، أو في شكل زمرة من الافتراضات القبلية، رغم أنها ليست بقصة أو افتراضات قبلية.
- 4/ افتراضات قد تكون صحيحة، كلياً أو جزئياً، أو قد تكون كاذبة كلها. هذا يعتمد على مقاربتها للحق الذي تقوم به الأمور في الواقع.
- 5/ افتراضات قبلية، نحملها بوعي أو بدون وعي، وقد تكون متسقة وقد لا تكون متسقة.
- 6/ الحقيقة الجوهرية للواقع، وذلك لأن رؤية العالم معنيّة في الأساس بالحقيقة الوجودية (Ontological)، أي الواقع على ما هو عليه.

3.2.1 - تعريف أكاديمي

رؤية العالم عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة.

يتبع هذا التعريف مجموعة من القضايا، هي:

1.3.2.1 - بناء رؤية للعالم

تشتمل على محاولات لتطوير رؤى للعالم تأخذ في الاعتبار أكبر قدر من أوجه خبراتنا الحياتية. ورغم أن هذا البناء يتم عبر جسور اللغة التي تتسم بالمحدودية إلا أن مشروع البناء يستحق الجهد. يرتبط بناء الرؤى للعالم بالثقافة التي عبرها يتم تداول المعاني، وتنتقل أنماط السلوك من جيل إلى جيل، وحيث يتم إنتاج المشاكل الاجتماعية، والسياسية، وأنواع الفنون. أما المواد التي تبنى بها رؤى العالم فتأتي من خبراتنا الذاتية العميقة، ومن معاملتنا العملية مع أشياء الحياة، وكذلك من تفسيرات التاريخ، والدين، والمعرفة العلمية عن عالمنا. كل هذه الأمور ترتبط بالضرورة بثقافة معينة ليست بجامدة بل هي في تغير مستمر. لذلك فإن رؤية العالم ليست صورة جامدة، أو نسخة كربونية من العالم، بل تحاول أن تلتقط أكبر قدر من سمات عالمنا.

2.3.2.1- خصائص رؤية العالم

أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و"الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلّمات والنظريات والاستعارات التي لا يقصي بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفيّة للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة. ولكن مع ذلك فإن رؤية العالم أكبر من مجموع الحقائق العلمية التي تأتي بها العلوم الفيزيائية والاجتماعية. لذلك فإن رؤية العالم قد تلهم مزيداً من التطور في العلم، وقد تنتقد بعض جوانبه. من هذه الزاوية تصبح رؤية العالم امتداداً وتواصلاً لما جاء إلينا من العلوم، أحياناً تتطابق معه، وأحياناً تقوم بالتعميم منه، وأحياناً تتقده وترفضه.

إن رؤية العالم لا تنسب إلى ناتج العلوم وحده، بل ينبغي أن تسمح لنا بتضمين عالم المعاني وعالم القيم بحيث نفهم أكبر قدر من سمات عالمنا. ولأن عملية التقويم تحتوي على قدر كبير من الذاتية، ومن ثم تلتصق بشخص بعينه حتى داخل الثقافة الواحدة، فإن من الصعوبة البالغة تحقيق رؤية عالم كونية شاملة وواحدة لكل الناس. إن رؤية العالم يجب أن تتسع لتجارنا الجمالية والأخلاقية، وكذلك لأفعالنا الحقيقية المتوقعة في هذا العالم، بما في ذلك الأفعال السياسية. وهذه الأخيرة تجعل من الأيديولوجيات مكوناً في رؤية العالم.

3.1- المكونات السبعة لرؤية العالم

1.3.1- نموذج للعالم (A model of the world)

يجب أن تمكننا رؤية العالم من فهم كيف يعمل العالم وكيف بُني. "العالم" هنا تعني كل شيء موجود حولنا بما في ذلك العالم الفيزيائي، الأرض، الحياة، العقل، المجتمع والثقافة. الإنسان نفسه جزء مهم من العالم لذلك لا بد أن تجيب رؤية العالم عن السؤال الأساس: من نحن؟

2.3.1- التفسير (Explanation)

لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء هذا العالم؟ من أين جاء الجنس البشري؟

3.3.1- المستقبلية (Futurology)

إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف نختر بين المسارات المستقبلية المختلفة بحيث نفضل ما يجب تفضيله؟

4.3.1- القيم (Values)

ما هو الخير والشر؟ يتضمن هذا المكون النظام الأخلاقي الذي يحدد لنا ما يجب وما لا يجب أن نفعله. يعطينا هذا المكون أيضاً زمرة من المقاصد التي تقود أفعالنا.

5.3.1- الفعل (Action)

إن معرفة الأهداف والمقاصد لا يعني معرفة كيفية الوصول إليها، لذلك لابد من الإجابة عن السؤال: كيف نفعل؟ يجب أن نعطي نظرية للفعل تعيننا على حل مشاكل عملية، وتنفيذ خطط أفعالنا.

6.3.1- العلم (Knowledge)

تعتمد الخطط على العلم والمعلومات والنظريات والنماذج التي تصف الظواهر التي تواجهنا. لذلك نحن في حاجة لمعرفة كيف نبني نماذج معرفية يمكن الاعتماد عليها، وهذا هو مكوّن كسب العلم في رؤية العالم. يجب الإجابة عن السؤال المتعلق بما هو حقيقي وما هو كاذب.

7.3.1- كتل البناء (Building Blocks)

الرؤى للعالم لا تبدأ من لا شيء، بل لابد من كتلٍ تبدأ بها، وتتمثل في النظريات العلمية القائمة، النماذج، المفاهيم، القيم وغيرها من الموجهات المتوزعة بين التخصصات العلمية والأيدولوجيات.

4.1- اختبارات رؤية العالم

- 1.4.1- اختبار النسقية: هل رؤية العالم المعنية متسقة منطقياً؟
- 2.4.1- اختبار الوسطية: هل تقوم رؤية العالم المعنية على ميزان قسط بين التعقيد والتبسيط؟
- 3.4.1- اختبار القوة التفسيرية ومدى الرؤية: إلى أي مدى تحسن رؤية العالم تفسير الواقع؛ وما مدى كمال الأدلة الداعمة لمجال رؤيتها؟
- 4.4.1- اختبار التوافق: إلى أي مدى تتوافق رؤية العالم المعنية مع حقائق الواقع المؤكدة؟
- 5.4.1- اختبار الإثبات: هل يمكن تأكيد، أو تكذيب الحقائق المركزية التي تدعيها رؤية العالم المعنية؟
- 6.4.1- اختبار الواقعية: هل تدعم رؤية العالم المعنية نتائج واقعية وعملية بحيث يمكن عيشها في الخارج؟
- 7.4.1- الاختبار الوجودي: هل تعالج رؤية العالم الاحتياجات الداخلية الحقيقية للبشر بحيث يمكن عيشها في الداخل الوجداني؟
- 8.4.1- اختبار المنافسة: هل تستطيع رؤية العالم المعنية المنافسة في سوق الأفكار؟
- 9.4.1- اختبار التنبؤ: هل تستطيع رؤية العالم المعنية التنبؤ بنجاح بالاكشافات المستقبلية؟

2- الإنسان من خلال مفهوم الفطرة في القرآن الكريم

قول الله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(الروم:30)، يدل على أن الدين الحق، بحقيقته التي توحد باطن الإنسان، وأحكام شريعته التي توحد ظاهر حياته، معادل للفطرة(الخلق) البشرية التي فطر(خلق) الله تعالى الناس عليها، في أصولها الكلية وتمظهراتها التفصيلية. إذن ما هي هذه الأصول الكلية للفطرة البشرية كما جاءت في القرآن الكريم؟ وما هي تمظهراتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع كل ذلك فطرة الله التي

فطر الناس عليها، مصداقاً لقوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾) (الرعد)؛ (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾) (الصفات)، ثم كيف يكون دين التوحيد الحق (قرآن، سنة)، وهو علم، معادلاً في حقيقته وأحكام شريعته لهذه الفطرة البشرية ذات الطبيعة الكونية؟ بالنظر الفاحص المتدبر في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية:

أولاً؛ ثنائية الخلق من الجسد الطيني والروح المغايرة للطين كما في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾) (الحجر)؛ (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾) (ص). وحقيقة الروح سكنت عنها القرآن الكريم إذ هي من الأمر الإلهي: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾) (الإسراء). ونلاحظ هنا أن الله تعالى لم يذكر في تكوين الإنسان سوى عنصرين، الصلصال الطيني والروح، مما يدل على أن "النفس" البشرية، ما دامت ليست هي الروح لأنه تعالى سكنت عن الأخيرة وبين طبيعة الأولى كما سوف يتضح أدناه، فهي من الصلصال الطيني، ويدخل بذلك الماء في تركيبها، ومن ثم تكون هي أصل الحياة في الإنسان، لأن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، وهذا هو الأصل المشترك بين الإنسان والحيوان.

ثانياً؛ ثنائية في خصائص النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٥﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٦﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٧﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿٨﴾) (الشمس). ملهمات الفجور في النفس تمثلت في صفات فطرية مثل الشح: (وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴿١٢٨﴾) (النساء)، الهلع: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾) (المعارج)، الضعف: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا

﴿النساء﴾، العجلة: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) ﴿الأنبياء﴾. وتتركب من هذه

الخصائص الفطرية وتتفرع عنها صفات سالبة أخرى، تقوى أو تضعف أو تتعدم في الشخص بحسب أحوال الناس، منها: البخل؛ الكبر؛ الحسد..إلخ. ونلاحظ أن ملهفات الفجور ترتبط إرتباطا وثيقا، وذات علاقة طردية، بشهوات زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، فهي تقوى وتطغى على النفس التي يتمكن منها حب تلك الشهوات(الهوى)، ويضعف سلطانها على النفس بحسب ذلك.

ملهفات التقوى موجودة بالقوة في النفس، ولكنها توجد بالفعل عن طريق المجاهدة والتزكية للنفس من ملهفات الفجور المذكورة أعلاه. ومن ملهفات التقوى: العلم، الرحمة، الصبر؛ العدل؛ الإحسان؛ الصدق؛ السخاء..إلخ. ونلاحظ أن ملهفات التقوى في النفس ذات علاقة عكسية بشهوات زينة الحياة الدنيا، فكلما ضعف حب النفس لتلك الشهوات(الهوى) كلما قوي تأثير ملهفات التقوى في النفس.

واضح من الآيات السابقة أن النفس غير الروح، ونستنتج أن الروح هي التي تعطي الإنسان حظّه النسبي من الصفات الإلهية، التي هي ملهفات التقوى(الإيمان، العلم، الرحمة، العدل، الإحسان، الصدق، البر، الكبرياء، الهيمنة، العزة، الجبرة، القهر، المغفرة....إلخ) ما جعله يتميز عن باقي المخلوقات، واستحق بها التكريم وسجود الملائكة له. ولكن الله تعالى بيّن لنا ما يكفي عن النفس وتسويتها، وخصائصها ودورها في حياة الإنسان، وما هو مطلوب من الإنسان بشأنها. كذلك فإن الخطاب القرآني يوجه دائما إلى النفس باعتبارها مدار التكليف في الدنيا، والمستهدفة بالموت انتقالا منها، وبالجزاء في الدار الآخرة. ويبدو، والله تعالى أعلم، أن الروح هي مستودع ملهفات التقوى الأخلاقية الإلهية التي ذكرتها سابقا، وهي التي تُكسب وتُمد النفس بما يناسبها من تلك الصفات، والنفس من جانبها تتخلّق وتحدد الكيفية التي توظف بها تلك الصفات الإلهية بحسب أحوالها من فجور وتقوى، وهي تتقلب في ابتلاء زينة الحياة الدنيا(المال والبنون). لذلك فإن الإنسان الذي يكاد ينعدم فيه تأثير الروح بسبب كفره بالله تعالى يصبح كالأنعام، وقد صدّق ذلك القرآن في قوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ هِيَ وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ هِيَ وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ هِيَ أُولَئِكَ

كَأَلَّا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ (الأعراف)؛ (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٨٠﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴿١٨١﴾ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ) (محمد).

ثالثاً؛ من أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة القدرة على كسب العلم، وترتكز هذه القدرة على خصائص السمع والبصر والفؤاد: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٧٨﴾) (النحل).

رابعاً؛ زين للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان؛ لذلك لا يرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفسدات عن نفسه؛ سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره واتباع منهجه، فقال: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى) (طه)، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها، مع الإعراض عن ذكر الله ومنهجه، لا يجلب للإنسان سعادة حقّة، ولا أمناً ولا طمأنينة، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم، ولا تبديل لخلق الله.

خامساً؛ أودع الله تعالى في أصل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال، لذلك قال: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴿١٨٠﴾) (الكهف)، وقال: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾) (النحل).

سادساً؛ جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطراراً مهما أعرض ونأى بجانبه، كما في قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ

تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا^ط فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ^ج وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ (الإسراء)؛ وفي قوله تعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ^ط ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٦٨﴾) (النحل)؛ وقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ^ط قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا^ث) (الأعراف). لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب، أيًا كان نوع هذا الارتباط، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذا الارتباط الفطري بالغيب.

نخلص من أصول الفطرة البشرية المذكورة آنفاً إلى نتيجة نقرها الآن ونبررها فيما يأتي من صفحات إن شاء الله تعالى، وهي الآتي:

الظاهرة الاجتماعية، بجميع مظاهرها في الزمان والمكان، إنما هي التظاهرات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفاً مع كليات زينة الحياة الدنيا (المال، البنون).

إذن قول الله تعالى إن الدين القيم (القرآن، السنة) هو هذه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها يعني، في رأي الباحث، أنه يعادلها معرفياً ويستوعب تفاعلاتها الكونية في كل زمان ومكان، حيث يبين القرآن الكريم أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه، ويفسر "خطة الخلق العامة"⁵ في عالم الشهادة وتجلياتها عبر التاريخ، ثم يبين مآلها وتأويلها رجعى إلى عالم الغيب.

بناءً على ما سبق يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم المبني على أصول التقوى في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا عملاً صالحاً، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس اعتقاداً، وعلى أصول زينة الحياة الدنيا سعياً في الأرض فساداً: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ^ط أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ^ط شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا^ط وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

⁵ - أنظر مضمون هذا المصطلح في الجزء التالي من البحث.

مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ (الأنعام)، وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥٥﴾) (الأنعام). كل ذلك حتى يحيى من حيٍّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وما ربك بظالمٍ للعبيد.

سابعاً؛ نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقى من الوحي الكريم (إبستمولوجيا الظاهرة الاجتماعية)، كما أن السنن الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا، والمكتشفة والمؤكدة بواسطة البحث العلمي التجريبي (أنطولوجيا الظاهرة الاجتماعية) لا يمكن أن تتعارض مع سنن وأحكام الوحي المتعلقة بها، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لكيفية عمل تلك السنن الاجتماعية الإلهية، ولحكمة التشريع الإسلامي وعمله ومقاصده. وهذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية، كما القوانين الطبيعية، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.

3- رؤية القرآن للعالم (خطة الخلق العامة)

تضمّن القسم الأول ثلاثة تعريفات لرؤية العالم: (فلسفي، ديني، علمي)، وسوف نأخذ، في صياغتنا لرؤية القرآن للعالم، بالتعريف العلمي، وبمضمون التعريف الديني وذلك لسببين:

السبب الأول؛ هو أن التعريف العلمي يسمح لنا بالتأسيس العلمي الموضوعي، قدر الإمكان، لرؤية القرآن للعالم، وذلك انطلاقاً من القرآن الكريم الذي هو كتاب أحكمت

آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، فهو علم مطلق من عند من خلق العالم بعلمه، وهذه ميزة لا تتوفر إلا لرؤية القرآن للعالم. لذلك نحن سوف نجتهد⁶ في استنباط أهم مقومات رؤية القرآن للعالم بحيث تستوفي أكبر قدر ممكن من عناصر التعريف العلمي الذي عرّف رؤية العالم بأنها:

عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكنا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسر أكبر عدد ممكن من عناصر خبرتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة.

السبب الثاني؛ هو أن مضمون التعريف الديني لرؤية العالم يتمحور حول "القلب"، والقلب له دور مركزي في رؤية القرآن للعالم إذ تتحول الرؤية القرآنية العلمية الموضوعية للعالم إلى رؤية ذاتية للحياة عند آحاد البشر، يستقر جوهرها الصلب (العقلي، الوجداني، الإرادي) في القلب (عقيدة) لتعبّر عن الخصائص الخلقية والخلقية التي يتميز بها كل شخص عن غيره، ولتحكم من بعد ذلك مساره في أودية الابتلاءات المتجددة أبدا في الحياة الدنيا.

كذلك ورد أن أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و"الوفاء للتجربة". إن مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والاستعارات التي لا يقصي بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفيه للتجربة فقط عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة.

القرآن الكريم، كونه علم في كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ما فرط فيه من شيء، يستوفي بالضرورة اللوازم العلمية أعلاه لرؤية العالم: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء).

ولأن من خصائص القرآن أنه كريم فهو يعطي، لمن تحقق بالمنهج المناسب لتدبر آياته، علما بلا حدود؛ ولأنه في كتاب مكنون فعلمه يتكشف عبر الزمان إلى قيام

⁶ مشروع رؤية الإسلام للعالم- كغيره من مشاريع رؤية العالم التي يجري العمل البحثي فيها، وتتم مقاربتها من تصورات فكرية مختلفة- يحتاج إلى مراكز علمية متخصصة، وإلى جهود علمية ضخمة مستدامة، تتضافر فيها قدرات علمية متخصصة في شتى ضروب العلم من كل أنحاء العالم، للإحاطة بكل الجوانب المعرفية الضرورية للرؤية، ولتدراك ما يستجد من تحديات الحياة التي لن نتوقف أبدا في هذه الدنيا.

الساعة ليستوعب ويصوّب التجربة البشرية ويهديها للتي هي أقوم، ولأنه بلسان عربي مبين فإن لغته العربية هي لغة علمية مفاهيمية منضبطة على مستوى الحرف لتوصل الحق الذي أراد الله تعالى إبلاغه للناس.⁷

إن ما سوف نفعله في هذا الفصل، إن شاء الله تعالى، هو أن نقوم بمقاربة أولية لرؤية القرآن للعالم تأسيساً على القرآن الكريم، بحيث تستوفي قدر الإمكان معايير رؤية العالم المذكورة أعلاه. ومنهج التدبر الذي سوف نتبعه في ذلك يتكوّن جوهره من المنهج العلمي المعروف القائم على المقدمات الأولية، والتعميمات الاستقرائية، والاستنتاجات الاستنباطية، وهو منهج يستفيد من التفسير لكنه يتجاوزه إلى التحليل.

نستخدم مصطلح "خطة الخلق العامة" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً له، وتحميله، تكليفاً، أمانة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام مما أدى إلى خروجه وزوجه من الجنة ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعاً إلى الأرض بعضهم لبعض عدو. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **لخطة الخلق العامة** على الأرض بغرض توظيفها منهجياً كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **لخطة الخلق العامة** هذه، وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن للعالم (خطة الخلق العامة) هو مبدأ التوحيد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝) (الإخلاص). فالله تعالى ليس كمثله شيء، غني بذاته مفتقر إليه جميع خلقه، وهو خالق كل شيء، خالق السموات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو

⁷ - أنظر كتاب محمد أبو القاسم حاج حمد "منهجية القرآن المعرفية".

الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده. وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرج تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة، فقال: (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾) (الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية (خطة الخلق العامة) على النحو الآتي:

المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية، المعبرة عن حقيقة الحياة البشرية على الأرض، هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: 56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيهِ في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) (البقرة: 36)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) (الأعراف: 25)؛

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه في الأرض: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء: 70)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخلف "الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستخلف "الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: (يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣١﴾) (الحجرات)؛ (يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١٣٢﴾) (النساء)؛

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: (هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود:61)؛

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة على العمل: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الملك:2)؛ (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧٠﴾) (هود). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل

فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها؛

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الكهف:7)؛

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصليين جامعين هما: "المال" (موارد معدنية، وزراعية، وحيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان)؛ و"البنون" (علاقة جنس بين رجل وامرأة تثمر أبناء،

تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46)؛

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و"البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(آل عمران:14)؛

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي المال والبنين، وما يترتب على تفاعلها مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب من عمل الإنسان. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)(الإنسان:3)؛ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)(الزمر:7)؛

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هياه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من ملهمات الفجور والتقوى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:78)؛ (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق: 5)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)) (الشمس:7-10). ثم منح الله تعالى الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بأخلاق التقوى الموجبة (الإيمان، العلم، الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق..إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بأخلاق الفجور السالبة (الشح، البخل، الكبر، الحسد..إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)(الكهف:29)؛

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر في الإنسان، هي: علم وإيمان وعمل صالح. أما العلم فهو علم بالمنعم (الله تعالى)؛ علم بالمنعم عليه (الإنسان)؛ وعلم بالنعمة (المال، البنون)، والحكمة من خلقها، وكيف هي

نعمة في حق المنعم عليه. وأما الإيمان فهو إيمان بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله، وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. وأما العمل الصالح فهو ذلك الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾) (إبراهيم). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتنوع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي النفسي: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (لقمان: 34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المحسوس الممتزج بالجسد المحسوس كما في قوله تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الزمر: 42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف: 46)، وهي علاقة (رجل - امرأة - أبناء - أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) (النحل: 72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) (الصافات: 149).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تمظهرات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

...﴿٤٦﴾(الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلاً إلى عناصره الأولية: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۚ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿٤٦﴾) (آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبط إشباعها بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و "المال" و "البنون" من الأصول الكلية المطلوب حفظها في مقاصد الشريعة الإسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1- "العلم بظاهر الحياة الدنيا"، وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلم (السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة.

2- "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفياً بحثاً حتى يأتي "علم الوحي" من السماء فيتوحداً، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكونا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وأخلاق التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وأخلاق الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسؤول عن نشأة المجتمعات الإنسانية، وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت أدت إلى تغشّي الرجل المرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضارية والبدوية، وكان العمران.

هناك سؤال يطرح نفسه هنا يتعلق بكيف تكاثرت الأسرة الأولى، هل تزوج الإخوان الذكور شقيقاتهم؟ الإجابة هي أنه من حيث التكوين الحيوي والنفسي للإنسان فإن ذلك

ممکن، والدلیل علی ذلك، أولاً؛ تحريم القرآن والسنة للعلاقات الجنسية بين المحارم، وثانياً؛ ما نراه من انتشار للعلاقات الجنسية بين المحارم في هذا الزمان مما هو موثق في الشبكة العنكبوتية. والعلة المانعة هي في الأساس علة شرعية حيث التحريم الإلهي الصريح لهذا النوع من العلاقات، فصارت بذلك محارم لها وازع نفسي تربوي عند أهل الأديان السماوية. ولذلك إن أخذنا بمبدأ أن التكاثر البشري بدأ بزوجين اثنين فقط فلا مناص من التسليم بأن الزواج بين الأشقاء كان مباحاً في البدء، ثم حرم بعد ذلك حفظاً لقدسية هذا النوع من العلاقة الرحمية بعد أن انتفت الحاجة إليه بسبب حدوث التكاثر العددي الذي أدى إلى التباعد الرحمي، والله تعالى أعلم.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى" مع "المال" و "البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزُيِّن لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموح فيه، في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهاافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى نظام اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدراً عنهم المفاصد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسؤولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليده وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددتها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر

البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيراً، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجمالناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و"لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: (وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿١٧﴾) (إبراهيم)؛ (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ^ع وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٨﴾) (النساء). ولكن ملهفات الفجور السالبة التي جعلها الله تعالى خصائص فطرية في النفس البشرية (الهلع، الضعف، العجلة، الكبر، الشح، البخل، الحسد.. إلخ) هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استتكر قوم نبي الله شعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود: 87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى: 16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنعام: 32)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (الشورى: 20).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: (إن) هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) (المؤمنون: 37)، أو قال: (ربنا عجل

لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(ص:16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو "تعظيم متاع الحياة الدنيا": (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20).

أما من قال: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(البقرة:201)؛ أو قال: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:39)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو "تعظيم الإيمان" من خلال "تعظيم العمل الصالح" في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في "تعظيم متاع الدار الآخرة": (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:21)؛ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص:60-61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شئ حتى يحيى من حَيَّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي للمسلم الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تمظهراته في السلم، وهو كناية "الدين" المقصود حفظها في مقاصد الشريعة الإسلامية. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ "الإيمان" والعمل الصالح: (وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ)(العصر)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)(الإسراء:33)؛ و"البنين": (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)(الأسراء:31-32)؛

و"المال": (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾) (البقرة)؛ و"العلم": (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾) (الإسراء:36).

إن العلاقة بين "الإيمان" من جهة وبين "النفس"، "العلم"، "المال" و"البنون" من جهة أخرى هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل "التوحيد" بوجهيه، العقدي (الإيمان) والعملي (الشكر). ولا يمكن حفظ "الإيمان" إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد (الدين) على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ^ط وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ^ع ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾) (الأنعام،153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تنبأت من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية (عبادات، عادات، معاملات، جنيات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من أخلاق التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به ملهات الفجور، وتمكيناً "للعلم التوحيدي" الذي تتعلق به ملهات التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكَل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح.. إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنيات، حدوداً وتعازير، حياة لأولي الأبواب من حيث قطعها

الطريق على النفوس التي أجمعها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود "الله تعالى" أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيداناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلف "الله تعالى" من قبل المستخلف "الإنسان" فيما استخلف فيه "الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية - بمعناها القرآني لا الاصطلاحي - التي هي شرعة (مقاصد) ومنهاج (وسائل)، هي الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هي أصول الاجتماع الإنساني (الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفاً عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في تفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية، وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توضع السياسات المناسبة، العام منها والخاص.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النظام المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من "رؤية العالم الدنيوية"، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الإنساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل رقم (1)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلى الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية لنظام الاجتماع التوحيدي،

أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية لنظام الاجتماع الديني. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا في إطار نظام الاجتماع التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الديني في إطار نظام الاجتماع الديني.

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، "رؤية العالم التوحيدية" التي يمثلها عمود الصناديق في أقصى يمين الرسم، و"رؤية العالم الدنيوية" التي يمثلها عمود الصناديق في أقصى يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. الشكل رقم (2) يجسّم الرؤية التوحيدية للاجتماع الإنساني، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراتها في إطار نظامها الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم (3) الرؤية الدنيوية للاجتماع الإنساني. ومن معطيات الرؤية التوحيدية تأتي الأحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات الرؤيتين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموماً، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على النفس البشرية، بما في ذلك نفس المسلم.

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل "الإيمان" متغيرها التابع، ومتغيرات "النفس مطمئنة"، "العلم التوحيدي"، "المال"، "البنون"؛ متغيراتها المستقلة؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضاً.

الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العري، الإضحاء، العنت) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبيّن آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبينّ النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائله المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات

من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجدّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ، والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية (دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهي أيضاً دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في "تعظيم متاع الحياة الدنيا"، ويوظف أكثر الوسائل فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني. ضرب الله تعالى لنا أمثالا في القرآن الكريم قارن فيها بين أهم مخرجات نظام الاجتماع التوحيدي متمثلة في المسلم الراشد، وبين أهم مخرجات نظام الاجتماع الدنيوي متمثلة في الإنسان الدنيوي، فقال:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾) (النحل)؛ (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾) (الزمر).

تعس عبد الدنيا، تعس عبد الدرهم والدينار، فكل شهوة من زينة الحياة الدنيا تنتصب حسناء معلنة عن نفسها وداعية لإلاها (هواه) إليها، ولا يزال يلهث وراء شهوات متشاكسة لا يستطيع قضاء وطره منهن جميعاً، ولا يزال يصارع منافسيه عليهن حتى

تتقطع به السبل في أودية الشهوات فيجد الله عنده فيوفيه حسابه، والله سريع الحساب. فهو عبد مملوك لشهوات الدنيا ولمن بيده تلك الشهوات من الناس، وكلهم شركاء متشاكسون لا يستطيع إرضاءهم جميعاً، ولا يمكنه إرضاء أياً منهم دون إغضاب الباقيين، فأى خير يرجى من مثل هذا! وهل يستوي هذا ومن حُبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان فجعله من الراشدين؟ المسلم الراشد خرج عن داعية هواه فهو عبد لله اختياراً، كما هو عبده اضطراراً، فليس فيه شركاء متشاكسون، وهو أبداً على صراط مستقيم.

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم لرؤية العالم التوحيدية، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. الرؤى الشمالية الغربية المعاصرة، في رأي الباحث، هي التجلي التاريخي الأتم للرؤية الدنيوية، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر من الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إن النظام المعرفي القرآني للاجتماع الإنساني أعلاه يمكن أن يمثل "برنامج بحث علمي"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعى في كلياته لتفسير التجليات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تتاسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان. ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله، واتباع المنهج العلمي الصارم (الاستقراء، الاستنباط)، تدبراً في القرآن الكريم، أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدا تنوع تمظهراتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "خطة الخلق العامة"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تجلّت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "خطة الخلق العامة"، بحيث نتج عن ذلك التجلّي والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة.

إنّ خطة الخلق العامة، على المستوى المعرفي، هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. وهي على الصعيد الوجودي تدبير إلهي مُحكم خرج من مشكاة العلم الإلهي قضاء إلى مجال التحقق الفعلي في الزمان والمكان قدرا، وهي السبب في خلق السماوات والأرض: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٧﴾) (هود). وهي تتكشف لحظة بلحظة منذ بداية خلق الكون إلى قيام

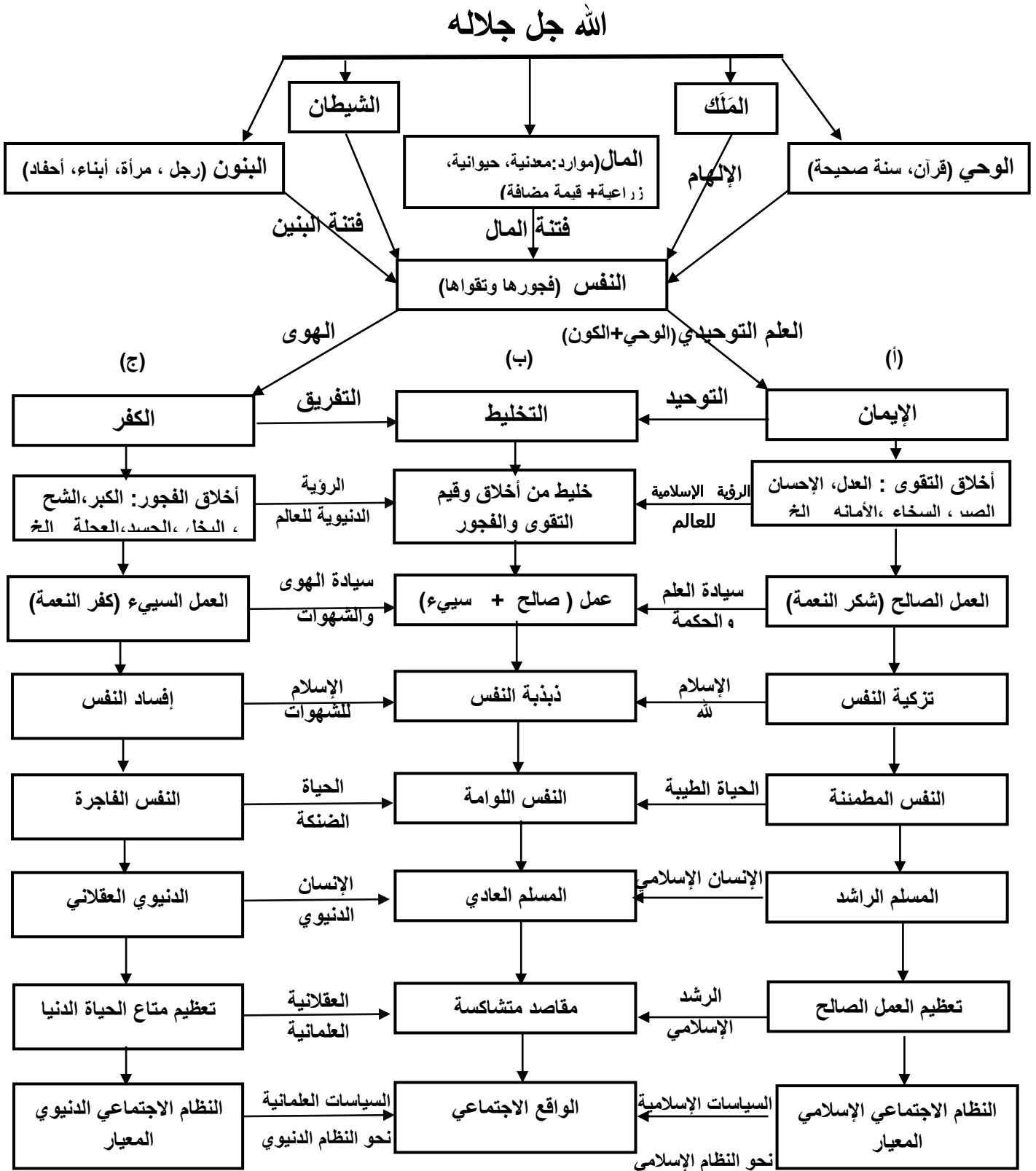
الساعة، فليست هناك لحظة واحدة يكون فيها الكون على حالته التي كان عليها قبلها. والله تعالى هو القائم عليها يدبّر أمرها، وهو سبحانه الضامن لتحقيقها قدرا كما قضاها علما، ويصدق القرآن ذلك في آيات بينات: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٨﴾) (يونس)؛ (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾) (الأنعام)؛ (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ (الرعد)؛ (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢١﴾) (الرحمن)؛ (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٢﴾) (البقرة)؛ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٤﴾) (الحج)؛ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢٥﴾ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿٢٦﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿٢٨﴾ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿٢٩﴾ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٣٠﴾) (البقرة).

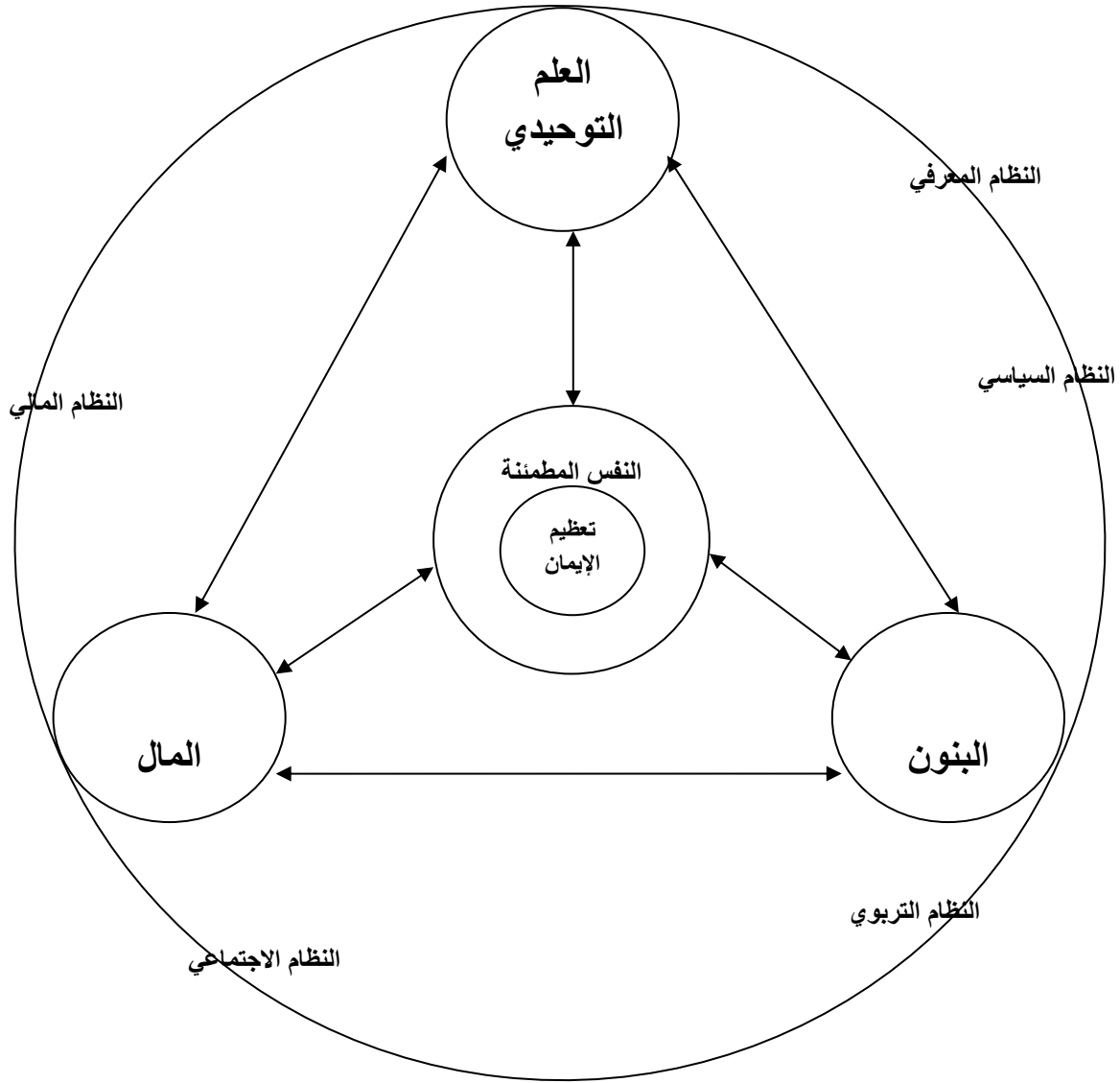
لذلك فإن البحث العلمي في التجليات التاريخية لخطه الخلق العامة سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق.

شكل رقم (1)

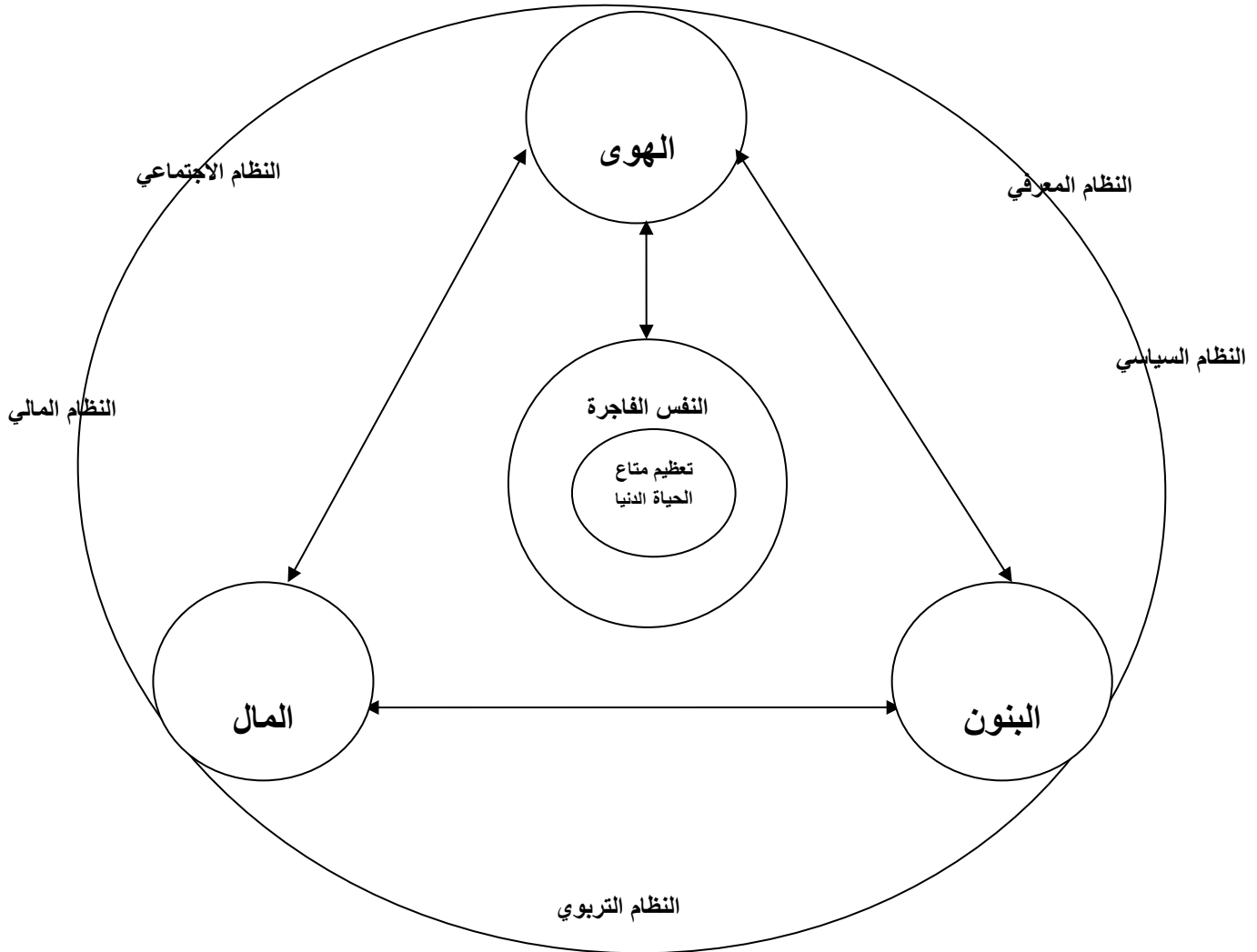
نموذج معرفي قرآني للاجتماع الإنساني



شكل رقم (2)
نموذج الاجتماع التوحيدي



شكل رقم (3)
نموذج الاجتماع الديني



الذي يمعن النظر في نظام (خطة الخلق العامة) في الشكل رقم (1) أعلاه يلاحظ ظهور عنصرين فاعلين في هذه الخطة الإلهية العظيمة، التي محورها الإنسان، لم نذكرهما من قبل، وهما "الملك" و"الشيطان". ليس من المناسب هنا التفصيل في طبيعة وأهمية الدور الذي يلعبه كل من "الملك" و"الشيطان" في حياة الإنسان الابتلائية في هذه الحياة الدنيا، ولكن أي حديث عن هذا الدور مهما قل لا بد أن يسبقه ثم يلزمه حديث عن دور "القلب" كجوهر للنفس البشرية ومحل للابتلاء، ومن ثم كمستقبل للملك وللمة الشيطان، كما يفيد بذلك الحديث الشريف الذي أورده النسائي في السنن الكبرى: (أَخْبَرَنَا هَنَادُ بْنُ السَّرِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ مَرْثَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لِمَةً، وَلِلْمَلِكِ لِمَةً، فَأَمَّا لِمَةُ الشَّيْطَانِ فَأَيْعَادُ بِالْشَّرِّ، وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لِمَةُ الْمَلِكِ فَأَيْعَادُ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ مِنَ الْآخِرِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَرَأَ [الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا: البقرة: 268].

القلب في القرآن والسنة هو جوهر الإنسان، ويجب أن يكون المستهدف بالتركية والتربية، على المستوى العقلي لأنه هو الذي يعقل، وعلى المستوى الوجداني لأنه هو الذي يوجد، وعلى المستوى الإرادي لأنه هو الذي يريد. إن القلب هو الواصل بين العبد وربّه، وهو الواصل بين الوحي والعمل الإنساني الصالح من جهة وبين العمل الإنساني الصالح والخلق الكوني من جهة أخرى، لذلك فإن الله تعالى لا ينظر إلى صور الناس ولكن ينظر إلى قلوبهم. إن القلب خلق ليكون عابداً؛ فلا بد له إذن من إله، فإن لم يكن الله كان إلهه هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدىً من الله. إن الهوى هو سفير الشيطان في قلب كل إنسان، وهو لذلك مستقبل كل أنواع الواردات الشيطانية، ابتداءً من الوسوسة، مروراً بكل أنواع الغواية الصوتية والمرئية، والأفكار الدنيوية (إن هي إلا حياتنا الدنيا)، وانتهاءً بكل أنماط الفعل الاجتماعي المفضي إلى الفساد في الأرض: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٠٨﴾) (البقرة). ويُجمل القرآن الكريم

هذه الأبعاد الشيطانية للقلب في آيات بليغة: (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٢﴾) (النحل)؛ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٦٣﴾) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٤﴾) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٦٥﴾) (الأنعام). وفي تحذير توجف له القلوب يخاطب الله تعالى المؤمنين: (يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا تَحْيِيكُمْ ۖ وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۖ وَأَنَّهُ رَٰئِي إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ ﴿٦٦﴾) (الأنفال). ويربأ الله تعالى بالمؤمنين أن تكون قلوبهم في علاقتها به مثل غيرهم من أهل الكتاب: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٦٧﴾) (الحديد).

ويوم البعث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وقليل ما هم. وفي آيات قرآنية بليغة يسأل الله تعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، الملائكة عن ماذا كان يعبد الناس من دون الله في حياتهم الدنيا، وهو أعلم بما كانوا يعملون: (وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَا ۖ إِنِّي أَكْرَمُ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾) (سبأ).

إن القلب، الذي هو بهذا القدر من الخطر، جدير بأن يكون بأعين أهل النظر والعمل في كل أمة من الأمم، لا سيما أمة الإسلام، فيوالونه بالبحوث العلمية المتكاملة، عبر مؤسسات علمية متخصصة، لمعرفة أحواله وأطواره والمؤثرات عليه، وكيف تتخلق شخصية الإنسان بداخله عبر مراحل العمر المختلفة، وما هي السياسات التعليمية

والزكوية التي يمكن أن تحكم التفاعل الإدراكي والوجداني والإرادي في القلب بحيث تتيسر صياغة الشخصية السوية الإيجابية للمسلم (المسلم الراشد). إن الأعمال العظيمة، كما ونوعا، وتلك الحقيرة كما ونوعا، تصدر عن القلب، ولا يحصد المجتمع من العمل من أفراد إلا بمقدار ما زرعه في قلوبهم منذ صغرهم. لذلك يجب أن يكون للقلب دور مركزي في "رؤية القرآن للعالم"، وقد كان الأمر كذلك في قرون الإسلام الأولى، ثم تراجع كما تراجعت كل أسباب الصلاح في الأمة.

هذا مقام مناسب لاستدعاء وللتذكير بأهمية "القصة"، التي وردت في التعريف الديني لرؤية العالم، كوسيلة فعالة لبلورة رؤية الإسلام للعالم، ثم في ترسيخها في القلب بكل أبعاده القرآنية: العقلية؛ الوجدانية؛ الإرادية. إن القصة هي أسهل وأرق وأحب الوسائل الإدراكية للوصول إلى قلوب الناس، صغيرهم وكبيرهم، لا سيما في هذا الزمان الذي يأخذ فيه الإخراج المرئي والمسموع بأنفاس المشاهد والسامع. إن قصة واحدة من القصص الحق - سواء كانت من قصص القرآن الكريم، أو السنة النبوية، أو السيرة النبوية وسير الصالحين، أو من نسج الخيال تأسيسا على الوحي - جيدة السبك كشكسبير، جيدة الإخراج كهوليوود، سواء في كتاب يقرأه الناس قياما، أو قعودا، أو على جنوبهم، أو في شريط صوتي يسمعه المسافر والمقيم متى شاء، أو في مسلسل تلفزيوني، أو فلم هوليوودي في جودته، أو فلم كرتوني على غرار ديزني في رشاقتة، أو كل ذلك مودع في الفضاء السايبري، قصة واحدة من هذا النوع تعبّر عن رؤية الإسلام للعالم، مترجمة إلى كل اللغات الحية، يمكن أن تصل إلى الجم الغفير من الناس في كل مكان، وتحدث من الأثر في قلوبهم ما لا تحدثه ألف خطبة وموعظة دينية من ألف خطيب.

لابد أن تعود للقصة مكانتها في التزكية والتعليم الإسلامي، وفي ثقافة المجتمع المسلم، تحكيها الأم لصغارها قبل نومهم، أو يسردها المعلم لتلاميذه في مدرستهم، أو يقومون بتمثيلها في مسرحهم. ولابد من الاحتفاء والتكريم والمكافأة للأدباء والممثلين

والمخرجين الذين يتولد عن عبقريتهم هذا النوع من الأدب الرفيع، الأسر للقلوب الهادي إلى صراط مستقيم.

إن كتب التراث الإسلامي في مجال التصوف مليئة بكنوز العلم والقصص المتعلقة بفقهاء القلوب، وتخليتها من أخلاق الفجور وتحليتها بأخلاق التقوى، وكيف يحمي القلب من همزات وكيد الشيطان الوسواس الخناس. ويجب على الأمة الإسلامية الاستفادة من ذلك التراث العظيم في المجال التربوي، وتنقيته واستئناف البحث فيه بانضباط منهجي، لأنه من علوم الأمة الضرورية التي لا غنى عنها إلى قيام الساعة.

يخبرنا القرآن الكريم بإيجاز بليغ وفي آيات قليلة عن الدور الذي تقوم به الملائكة في حياة الإنسان في الأرض: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَظِيمٍ) (الشورى)؛ (لَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ) (فصلت)؛ (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (الأنفال)؛ (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار).

يخبرنا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بتفصيل دقيق عن الدور، السالب والحاسم والخطير، الذي قام ويقوم به الشيطان، بلا كلل أو ملل، في إضلال الإنسان عن صراط الله المستقيم، منذ الخلق الأول للإنسان وإلى قيام الساعة، من منطلق الحسد ثم العدا. الحسد للإنسان هو الذي جعل إبليس، الذي نسل كل شيطان، يعصي الله تعالى في الملاء الأعلى، وبنال لعنته الأبدية بسبب ذلك: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۖ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۖ قَالَ يَتَّبِعْكَ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۖ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ

لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَـصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٢﴾ قَالَ فَآخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٦﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٩﴾ (الحجر).

إبليس، بعداوته للإنسان، هو الذي أخرج أبوي بني آدم من الجنة إلى الأرض: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوْسَوْسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُمْ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ (طه).

إبليس وذريته من الشياطين تعهدوا لله تعالى بملاحقة بني آدم في الأرض والاجتهاد في إغوائهم عن منهجه حتى لا يجد أكثرهم شاكرين، وقد أذن الله تعالى لهم في ذلك: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنْهُمُ ابْنُ آدَمَ وَاجْلَبَ عَلَيْهِمُ بَخِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ (الإسراء)؛ (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۚ لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَعَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۖ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ (الأعراف)؛ (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا) ﴿٢٦﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ ۖ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٢٧﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَئِهِمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿٢٨﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٩﴾ (النساء).

إبليس وذريته يقعدون للإنسان صراط الله المستقيم في زينة الحياة الدنيا (المال؛ البنون) حيث الابتلاء بحب الشهوات مستقر في القلب، فقد جاء في الحديث الشريف الذي جاء في السنن الكبرى للنسائي: (عَنْ سَبْرَةَ بِنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسَلِّمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءَ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسِّمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ " فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَّتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ").

إبليس وذريته، رغم ضعف كيدهم، إلا إنهم كسبوا معركتهم مع بني آدم، إلا قليلا، وقد وثق ذلك القرآن الكريم في آيات بينات: (وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشِرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ^ط وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَلُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ^ط إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^(١٢٨)) (الأنعام)؛ (وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولَاءِ^ط إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ^(١٢٩) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ^ط بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ^(١٣٠)) (سبا)؛ (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ^(١٣١)) (النحل)؛ (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(١٣٢)) (سبا).

جاء التحذير والتوجيه القرآني حازما للناس عامة وللمؤمنين خاصة باتخاذ الشيطان عدوا لأنه لهم عدو مبين: (يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ^ط فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغْرُنَكُم بِاللهِ الْغُرُورُ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦١﴾ (فاطر)؛ (يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ (البقرة)؛ (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٣﴾ (البقرة)؛ (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ (النور).

4- مفهوم الاستخلاف كما في رؤية القرآن للعالم

خير مبتدأ لهذا الجزء من البحث هو الآيات الكريمة التي ابتدأ الله تعالى بها إخباره الملائكة في الملائكة في الأعلى بأنه جاعل في الأرض خليفة:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِهٰذَا ۖ مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۖ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبٰى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٦٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ^ع إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٦٧﴾).

مدلول هذه الآيات وتلك المرتبطة بها فيما يلي مفهوم الاستخلاف ندرسه من خلال المحاور التي تستغرق جل، إن لم يكن كل، مفهوم الاستخلاف، وهي: المستخلف؛ المستخلف؛ المستخلف فيه؛ حقيقة الاستخلاف من حيث مقاصده ووسائله ومبتدئه ومنتهاه؛ الجزاء على القيام بواجب الاستخلاف أو الفشل فيه.

1.4 - الله تعالى المستخلف

القسم السابق تضمن كلام الله تعالى عن ذاته المقدسة وعن أفعاله، بمقتضى أسمائه الحسنى وتجلياتها الكونية، خلقا يشمل عالم الغيب والشهادة، ولا نستطيع المزيد على ذلك فيما يلي هذا الجانب من أمره تعالى. ولكن يبقى سؤال الملائكة⁸ عن الحكمة من استخلاف الله تعالى لمخلوق في الأرض لا ترى من ظاهر أعماله التي أراها الله تعالى لها إلا الإفساد وسفك الدماء، بينما إن كان الأمر يتعلق بعبادته تعالى، تسييحا وتقديسا، فهم، أى الملائكة، يقومون بذلك على الوجه الذي يرضيه. والله تعالى لم ينف الوصف الذي وصفت به الملائكة أعمال الإنسان التي ستقع منه بعد استخلافه وتمكينه في الأرض، ولكنه رد عليهم أن حكمة الاستخلاف هذه أجل وأعظم مما علمته الملائكة عنها لتوها، وهو ما يعلمه الله ولا يعلمونه. ولقد أثبت التاريخ الإنساني على الأرض، مما وثقه الإنسان أو صدّقه القرآن، صحة ما ذهبت إليه الملائكة، فقد كان تاريخا يغلب عليه، ليس فقط الإفساد في الأرض وسفك الدماء، بل الكفر والشرك بالله تعالى والحرب التي لا تضع أوزارها على رسالاته ورسالته. ولكن كل ذلك لا ينفي وجود الحكمة الأجل التي اختص الله بعلمها من دون الملائكة. ولا شك أن هذه الحكمة الزائدة عن علم الملائكة ذات علاقة مباشرة بعلم الأسماء الذي علّمه الله تعالى لآدم كما تشير إلى ذلك الآيات

⁸ - حتى الملائكة تسأل؛ تأليف د. جيفري لاثق؛ ترجمة د. منذر العيسى؛ دار الفكر المعاصر (بيروت) ودار الفكر (دمشق)؛ (ط2، 2005).

أعلاه، فماذا يمكن أن نستشف نحن البشر من ذلك في ضوء مفهوم الفطرة ورؤية القرآن للعالم (خطة الخلق العامة) مما مضى ذكره في القسمين السابقين؟

إن الله تعالى ليس بحاجة إلى خليفة ليدبر له أمر خلقه، فالناس والخلق كلهم فقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، ولكن الكون كله، بغيبه وشهادته، إن هو إلا تجلٍّ ضروري وأثر ومجال للفعالية الدائمة لأسماء الله الحسنى التي ذكر الله تعالى بعضها في القرآن الكريم. والإنسان، من دون جميع المخلوقات التي أعلمنا الله عنها، وحيا أو نظرا، هو التجلي الأتم لفعالية الأسماء الحسنى والمجال الأمثل لفعالها ونفاذ أثرها، وذلك بسبب ما نفخ الله فيه من روحه فأنشأه بذلك خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. المخلوقات كلها التي نعلمها مخلوقة على طاعة الله تعالى اضطرابا إلا الثقلين، الجن والإنس، فهما بالخيار في ذلك. والقرآن الكريم لم يخبرنا بتفصيل عن خلق الجن غير أنهم خلقوا من مارج من نار السموم، ولا عن قدراتهم إلا قليلا مما نعهده نحن البشر من الخوارق، ولم يخبرنا عن طبيعة مجتمعاتهم وأنماط حياتهم ولا عن طبيعة تكليفهم على هذه الأرض ولا كيف يؤدونه، ولم يقل القرآن إن الله تعالى عرض عليهم الأمانة كما عرضها على السماوات والأرض والجبال اللاتي أشفقن منها وأبين أن يحملنها، بينما حملها الإنسان عندما عرضت عليه. ولكن الإنسان، بنفخ الله فيه من روحه، اكتسب حظا نسبيا من جميع الصفات المنبثقة عن أسماء الله الحسنى التي نعلمها، والتي بها أصبح الإنسان قادرا باختياره على الإيمان بالله وفعل الخيرات، وأصبح ذلك الحظ النسبي من الفعاليات المقدسة أساسا لأخلاق التقوى، وأصبح الإنسان مكلفا بالقيام بحقها، وجُعِلت خلافة الإنسان في الأرض مجالا لنفاذ أثرها من خلال عمله فيما استخلف فيه، وهي الأمانة التي حملها الإنسان وبحقها يحاسب في الدنيا والآخرة.

إن فطرة الله التي فطر (خلق) الناس عليها، مما استعرضنا في القسم الأول من هذا البحث، و"خطة الخلق العامة" التي قامت بها السماوات والأرض وجُعِل الإنسان مرتكزا، تبين أن الله تعالى خلق الإنسان خلقا يجعله من خلال عمله في الأرض مجالا يتكامل فيه نفاذ فعالية الأسماء الحسنى، وليس ذلك إلا للإنسان. فبقدر ما أعطى الله تعالى الإنسان نصيبا نسبيا من صفات أسمائه الحسنى (الإيمان، الصبر، الرحمة، الصدق، العدل،

الإحسان، العلم.. إلخ)، وجعلها ملهمات التقوى في النفس البشرية أعطاه أيضا نقيضها (الضعف، العجلة، الهلع، الشح.. إلخ)، وجعلها ملهمات الفجور في النفس. فبمقتضى حظه النسبي من الصفة الحسنى يستطيع الإنسان أن يكون رحيمًا على خلق الله فيكون بذلك مجالا لرحمة الله، والرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى؛ ولكن الإنسان أيضا قادر على القسوة على مخلوقات الله فيكون بذلك مجالا لانتقام الله، والمنتقم من أسمائه الحسنى؛ والإنسان قادر على الإحسان في عبادته لربه وفي معاملته لخلقه فيكون بذلك مجالا لحب الله ولمودته، والودود من أسماء الله الحسنى. والإنسان قادر على معصية الله، وإن كان مؤمنا، فيكون بذلك عرضة لعقابه، ولكن الإنسان أيضا قادر على الندم ومن ثم الاستغفار والتوبة إلى الله فيغفر له ذنوبه ويتوب عليه، والغفار والتواب من أسمائه الحسنى. ومنتهى ذلك أن يكون الإنسان عبدا لله ربانيا على خلق عظيم بلغ منتهى مدارج السالكين إلى الله فيكون بذلك مجالا لعمل جميع الأسماء الحسنى فيما هو خير له في دنياه وآخرته، أو أن يكون كافرا بالله مدعيا الألوهية لنفسه، كما فعل فرعون، فيكون بذلك مجالا لنفاذ أثر الأسماء المقدسة المناسبة لحاله كالمنتقم والجبار والمتكبر والقوي والمتمين.. إلخ. ومهما كان الإنسان فاعلا ومنفعلا بأسماء الله الحسنى في الدنيا، عملا وجزاء، فإنه لن يكون إلا منفعلا بها في الدار الآخرة حيث الجزاء ولا عمل، وحيث الملك كله لله الواحد القهار.

إن الصفات الحسنى المقدسة في إطلاقها هي منتهى مدارج السالكين إلى الله تعالى، وما هم بباليغها رغم الكدح والكبد في التزكّي، ولكنه استباق الخيرات، ولكل درجات مما عملوا. ولو لم تكن من حكمة من خلق الإنسان وتكريمه واستخلافه في الأرض، تأسيسا على قاعدة الابتلاء ثم الجزاء، إلا كونه فاعلا ومنفعلا بأسماء الله الحسنى لكفى بها حكمة جليلة غابت عن الملائكة، واستوجبت أن يقول الله تعالى لهم إني أعلم ما لا تعلمون. ولو لم تكن من أمانة إلا هي لكفى بها أمانة تتوء السموات والأرض والجبال بحملها، ولحق أن يقال لمن حملها إنك ظلوم جهول، فقد سقط الإنسان، عبر تاريخه في الأرض، سقوطا مدويا في حملها بحقها إلا ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، كما وصفهم القرآن. ورغم ذلك فهي أمانة كان لا بد أن تكون لأنها مقتضى فعالية الأسماء

المقدسة، وكان لابد لها من حامل، وكان ذلك الحامل هو الإنسان؛ وكان لابد من مؤمنين وكافرين، والله تعالى الحجة البالغة فلو شاء لهدى الناس جميعا.

إن تعليم آدم الأسماء كلها، أي كل ما خلق الله لأن كل تفيد الاستقصاء والحصر، في مقام تكريمه أمام الملائكة وتبيان جدارته بالخلافة الأرضية، دليل على عظم منة العلم على الإنسان، فهو اسم مبهر من أسماء الله تعالى المقدسة، به خلق الخلق كله، وبه يقوم الجزاء يوم القيامة: (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ^ط وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٥٠﴾) (الأعراف). وبتمكين الإنسان من علم الأسماء عبر وسائل الإدراك لديه (السمع، البصر، الفؤاد) أصبح الإنسان قادرا على النظر المنهجي في خلق السموات والأرض وتحصيل العلم المتعلق بذلك، وأصبح مهياً لتلقي علم الخبر وحيا من الله تعالى، وأصبح تكليفه بحمل أمانة الاستخلاف في الأرض، تعميرا وانتفاعا وشكرا للمنعم، ممكنا، والحجة عليه في الإيمان بالله تعالى، برويته لآيات الله في الآفاق وفي نفسه، قائمة.

ولكن تبقى بعد كل هذا قضية شائكة، بين شوكتها، بشأن التجربة الاستخلافية للإنسان في الأرض، التي سبقت والمائلة منها الآن، مع تمام يقيني بحكمة الله تعالى وحجته البالغة. إن التاريخ الذي يوثقه ويصدق القرآن الكريم (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ^ج وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٦﴾) (آل عمران) عن مجريات "خطة الخلق العامة" على الأرض عبر الزمان يبين أن الأمم السابقة لم تستجب لرسالات الله، بل وأعلنتها حربا ضروسا على رسله، فريقا كذبتة وفريقا منهم قتلته، فاستحقت بذلك من الله الهلاك والتدمير، بل حتى المؤمنين منهم ما آمن أكثرهم إلا تحت ضغط التهديد والوعيد الإلهي، كقوم يونس وقوم موسى، عليهما السلام؛ وقليل من هؤلاء من وفى بحق الإيمان: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ^ط وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾) (هود)؛ (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ^ط الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾) (النحل)؛ (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا^ط كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا

كَذَّبُوهُ ۖ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۖ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ (المؤمنون)؛ (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۖ) (الإسراء).

وإذا نظرنا إلى واقع البشرية اليوم فيما يتعلق بمستحققات الإيمان بالله تعالى، وقد أصبحت آيات الله في الآفاق وفي الأنفس تترى، بحكم تسارع الاكتشافات العلمية والتراكم المعرفي عبر القرون، ووصول وحي الله إلى كل الناس في الأرض بكل اللغات المعروفة، فلا نرى اختلافا عن أحوال الأمم السابقة، بل نرى الفساد في الأرض قد اتسع حتى عم البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ونرى الناس في كل مكان يكتوون بويلات هذا الفساد. بل حتى تاريخ خير أمة أخرجت للناس لا يختلف كثيرا في معظم فتراته عن هذا الاستنتاج. وعندما نتأمل "خطة الخلق العامة" وبنائها المحكم، وطبيعة الابتلاء الكامن فيها مصحوبا بطبيعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما فصلناهما في القسمين الثاني والأول، وما ينجم عن ذلك من تفاعلات بين متغيراتها الضرورية (الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم التوحيدي، الهوى، المال، البنون) نصل إلى الإستنتاج ذاته، وهو أن تاريخ الاستخلاف البشري على الأرض ما كان يمكن أن يكون غير ما كان عليه. فما هي يا ترى حكمة الله الحكيم العليم ذي الحجة البالغة في أن ينتهي أمر الاجتماع الإنساني المعبر عن حقيقة الاستخلاف في الأرض إلى ما انتهى إليه حتى الآن، علما بأنه ما خلق الناس إلا لعبادته؟ نحن لسنا نسأل الله تعالى أو نستدرك عليه، فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل بل نحن المخلوقين الذين سوف نُسأل، كما إنه ليس المقصود أن نزرع اليأس من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون، ولكننا نطرح السؤال حول هذه المآلات الدنيوية الخطيرة لتجربة الاستخلاف الإنساني في الأرض لنعتبر منها فيما يلينا من استخلاف على المستوى الفردي والجمعي، وحتى نتبصر أحوالنا ونثبت أقدامنا على الصراط المستقيم فلا تزلّ بعد ثبوتها ونذوق السوء كما ذاقه من قبلنا من الأفراد والأمم، وحتى نأتي من الباقيات الصالحات من الأعمال ما يكافئ في عظمه عظم النبأ العظيم الذي جاء به الوحي، وعظم الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها،

وتصدينا نحن البشر لحملها، وقبل كل ذلك عِظم الخلق الكوني، بداية ونهاية، وهو ما خلق إلا ليكون مجالا لابتلاء الناس أيهم أحسن عملا: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^{٥٥} وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ^{٥٦}) (هود). إن الذين حملوا عبء رسالة الإسلام في العهد النبوي فأدوا حقها كانوا أناسا استثنائيين في التزامهم الديني وفي أعمالهم التي أضاعت الدنيا، وسوف يظل الأمر دائما كذلك لكل من أراد أن يتقدم هو بالإسلام، فردا أم جماعة، أو أراد أن يقدم الإسلام للعالمين. لذلك قال الله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ^{٥٧} إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ^{٥٨} رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ^{٥٩})... لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ^{٦٠} وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^{٦١}) (المتحنة)؛ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا^{٦٢}) (الأحزاب).

إن الذين يفسرون الآية القرآنية: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا^{٦٣} فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا^{٦٤} لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ^{٦٥} ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^{٦٦}) (الروم)، بأنها تعني أن الناس يولدون على فطرة (خلقة) الإسلام، داعمين فهمهم هذا بالحديث الصحيح في مسلم (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)، يدحض تفسيرهم هذا مفهوم الفطرة في القرآن الكريم الذي سقناه في القسم الأول من هذا البحث، وتاريخ تجليات هذه الفطرة على الأرض، سواء ما ذكره القرآن أو دونته الأقلام،

وكذلك المنطق العقلي الناقص في هذه الفطرة. أما الفطرة (الخلق) في القرآن فقد قدم الله تعالى ملهمات الفجور على ملهمات التقوى في النفس وجعلها أصل الفطرة (الخلق)، كما في قوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾) (الشمس)؛ (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١١﴾) (المعارج)؛ (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴿١﴾ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٢﴾) (الأنبياء)؛ (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴿١﴾ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢﴾) (النساء)؛ (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿١﴾) (البلد)؛ (وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴿١﴾ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾) (النساء)؛ (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴿١﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢﴾) (الإسراء).

ونتيجة لهذه الخصائص الفطرية في النفس البشرية جاءت الأوصاف العامة للإنسان في القرآن الكريم تؤكد غلبة الفجور على أفعاله في الجملة، كما في الآيات الآتية: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا ط فَمَا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴿١﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٢﴾) (الإسراء)؛ (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴿١﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢﴾) (الإسراء)؛ (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ط وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿١﴾) (الإسراء)؛ (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴿١﴾ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴿٢﴾ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣﴾) (سبا)؛ (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾) (يوسف)؛ (وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢﴾) (الأنعام)؛ (يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ (يس). ولا ننسى قول سيدنا يوسف عليه السلام: (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾) (يوسف).

ملهمات التقوى (الإيمان؛ الصبر؛ السخاء؛ الصدق؛ الأمانة؛ الشكر؛ الرحمة... إلخ) على النقيض من ملهمات الفجور، لا نجد آية واحدة في القرآن الكريم تجعلها وصفا عاما للناس، بل دائما هي حالات استثنائية لأشخاص استثنائيين بذلوا من الجهد في الإيمان والعمل الصالح (التزكية) ما حقق لهم تقوى الله تعالى فاستحقوا رحمته، حياة طيبة في هذه الدنيا وجزاء أجرهم بأحسن ما عملوا في الدار الآخرة: (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾) (هود)؛ (وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾) (فصلت)؛ (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠٠﴾) (الزمر)؛ (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١٠١﴾) (العصر)؛ (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾) (يونس)؛ (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۖ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾) (هود)؛ (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۖ ﴿٢٤﴾) (ص).

أما المنطق العقلي الثاوي في فطرة الله التي فطر الناس عليها والذي به قام التكليف للإنسان فيرد على من فهم من الآية بأن الفطرة هي الإسلام بقضية منطقية وهي:

ليس منطقياً أن يتحول الأصل الذي فُطر عليه كل الناس، وهو الإسلام والتوحيد بزعمهم، إلى استثناء عبر مسيرة التجربة البشرية على الأرض، ويصير الاستثناء، وهو الكفر والشرك بزعمهم، إلى تيار جارف يَكَيّف التاريخ البشري، سواء في موقف البشر من الله والرسل والرسالات، أو في مظاهر الفساد في الأرض التي أدت إليها هذه التجربة. فجوهر الأشياء دائماً تكون له الغلبة في متوسط التظاهرات التي من خلالها يتكشف ذلك الشيء عبر سيرورته، وقد عبّرت النفس البشرية عن غلبة ملهمات الفجور عليها من خلال تظاهراتها الاجتماعية عبر تاريخها في الأرض، وكسبت كسبا قال الله تعالى فيه: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿١٠١﴾) (فاطر)؛ (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٢﴾) (الأعراف).

إن الرجوع إلى "خطة الخلق العامة" والتفكّر فيها يمدنا بفهم نخضضُ به، إن شاء الله، شوك قضيتنا التي نسبر غورها، وما يلي من أسطر نعبر فيها عن فهمنا الذي يسره الله تعالى لنا، وهو المستعان وعليه التكلان سبحانه.

أولاً؛ إن الله تعالى له ملك السموات والأرض، تمنع عزّته أن يُسأل عما يفعل، وتقضي حكمته وعلمه أن يبلغ فعله تمام الكمال، عدلاً وإحساناً، وأن تتم كلمته صدقاً وعدلاً. وهو تعالى حرّم الظلم على نفسه، فلا يظلم أحداً من خلقه، بل أمره مع الناس كلهم يدور بين العدل والإحسان، فلم يبق في البحث عن إجابة على المسألة الشائكة هذه إلا الرجوع إلى "خطة الخلق العامة" لنبحث عن الحكمة الإلهية الثاوية فيها فتسعفنا بإجابات مناسبة إن شاء الله تعالى .

ثانياً؛ إن "خطة الخلق العامة" التي بسطناها في القسم الأول من هذا البحث تفتق في البصيرة إجابات عن السؤال يمكن إجمالها في الآتي:

"خطة الخلق العامة" خطة كونية إلهية محكمة اقتضتها كمالات وفعالية الأسماء المقدسة ونفذ أثرها، والإنسان الخليفة في الأرض هو محورها، وهو المجال الأتم لتكامل عمل هذه الأسماء المقدسة كما أوضحنا سابقاً. ولكن الخطة كلها تقوم على ابتلاء وامتحان عظيم للإنسان يكافؤ في عظمته عظمة الخالق الذي أحكمه، وعظمة خلق هذا الكون، بداية ونهاية، الذي يستمد حكمة خلقه من هذا الابتلاء: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾) (هود). لذلك نبه القرآن الكريم الإنسان الغافل عن هذا الابتلاء العظيم ومآلاته في الدنيا والآخرة: (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٢٨﴾) (ص)؛ (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾) (يونس)؛ (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١٠﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ۖ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾) (الأنبياء)، حتى ينتبه الناس من هذه الغفلة المهلكة ويجتهدوا في الأعمال التي تؤهلهم للتوفيق في هذا الامتحان. وقد اقتضت "خطة الخلق العامة" والابتلاء الذي تتأسس عليه أن يخلق (يفطر) الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم من حيث قابليته واستعداداته الخلقية المكافئة والمناسبة لهذا الامتحان، ومن هنا نفهم تماماً لماذا جعل الله تعالى ملهفات

الفجور في النفس هي الأصل وملهمات التقوى تكتسبها النفس مجاهدة بالتركية من ملهمات الفجور في امتحان زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، وهذا هو جوهر الابتلاء في خطة الخلق العامة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١٧٨﴾ (الكهف)؛ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ فِتْنَةً ۚ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿١٧٩﴾ (الأنبياء). ذلك أن سلعة الله غالية، وهي الجنة الأبدية، وقد حُفَّت بالمكاره فلا بد من كدٍّ وكبدٍ ونصبٍ من أجلها في هذه الدنيا، وقد أبلغنا الله تعالى ذلك بلسان عربي مبين فقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّيْنَاهُمْ آَلَاءَ اللَّهِ وَآَلَاءَ الْآخِرِينَ ۚ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ فِيهِمْ نَاصِرَةٌ ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧٨﴾ (البقرة)؛ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٧٩﴾ (آل عمران).

ولو أن الله تعالى خلق النفس بملهمات الفجور فقط في إطار هذا الابتلاء لكانت للناس حجة على الله، ولكنه سبحانه وتعالى صاحب الحكمة التامة والحجة البالغة ألهم النفس أيضا تقواها، وأعطى كل إنسان وجب عليه التكليف قدرا تاما من الحرية في خلقته، وإرادة كاملة تنبعث من تلقاء نفسه إن شاء، وقدرة على اكتساب العلم بوساطة مدركاته (السمع، البصر، الفؤاد) تمكنه من الاستجابة لرسول الله ورسالاته إن شاء؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إذن هي ذات القدرات والملكات التي بها يمشي الناس في الأرض، يحددون من خلالها أهدافهم الدنيوية، ويتخذون الوسائل والتدابير اللازمة من أفعال وأعمال لتحقيقها دون أن يعلقوا الأمر بقضاء وقدر، ودون أن يبحثوا لأنفسهم عن أعذار تقعدهم عن تحقيق مصالحهم. وفي إطار الإيمان لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فيما

أمر ونهى، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت؛ ولكل درجات مما عملوا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

ولأنه امتحان كان لابد أن تكون هناك مادة يُمتحن فيها الناس، ولابد من أسئلة تخص هذه المادة تتفاوت في مستوى صعوبتها يجيب عنها الناس، ولابد من إجابات بعضها صحيح تتفاوت إجابات الناس في مقدار هذه الصحة، وبعضها إجابات خطأ يتحمل صاحبها وزر خطئه فيها: (الْم) أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ (العنكبوت). والنجاح والرسوب في هذا الامتحان كلاهما متحقق بإذن الله، وبهما معا تتحقق الحكمة من "خطة الخلق العامة" وتتم فعالية الأسماء الحسنى المقدسة وينفذ أثرها: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ^ج وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٠٠﴾ (التغابن).

ولأنه امتحان قامت به السماوات والأرض، فهو ليس مثله امتحان، فهو يقتضي ليس فقط أن يؤمن المرء بالله تعالى، بل أن يكسب في إيمانه خيراً بالخروج عن داعية هواه في تفاعله مع زينة الحياة الدنيا حيث ملهمات الفجور ليكون عبداً لله اختياراً حيث ملهمات التقوى؛ وكل ذلك في مقدور كل إنسان مكلف بلغته رسالة الله تعالى؛ كل حسب وسعه. وهو امتحان ثقيل على النفس البشرية، لأنه يقوم على الحق الذي يكرهه أكثر الناس: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) (المزمل)؛ (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤١﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٤٢﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٤٣﴾ (المدثر)؛ (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ) (الزخرف)، ولكنه في مقدورها، ومكافئ لفطرة الله التي فطر

الناس عليها. والله تعالى، الحكم العدل، لا يكتب لكل إنسان إلا عملا لم يختار أن يعمل غيره في الوقائع الحياتية المقتضية لذلك العمل ولخيارات أخرى من العمل متاحة في ذات الوقائع، عبر مسيرة حياته على هذه الأرض. والحجة بينة في هذا من علم الإحصاء، فلو أن شخصا وجد نفسه في واقعة محددة وله أن يختار فعلا يناسبه من بين خيارات متعددة ومتاحة للفعل استجابة للواقعة فاختر فعلا بعينه، ثم أُعطي ترليون فرصة أخرى ليختار فعلا يناسبه من بين ذات الخيارات لذات الواقعة فاختر ذات الفعل فإن احتمال أن يختار فعلا مغايرا في الفرصة التي تلي الترليون هو صفر. ولذلك تلزمه الحجة إن كُتب عليه ذلك الفعل باعتباره اختياره الحر في الاستجابة لتلك الواقعة. ورغم أن الله تعالى خلق الناس وخلق أعمالهم، كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾) (الصافات)؛ (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢١﴾) (الرعد)، إلا أن ذلك، في رأيي، لا يؤدي إلى النزاع الذي نشب بين الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم في هذه القضية. ذلك أن الله تعالى لا يخلق خيار عمل واحد فقط مقابل موقف بعينه يقتضي من الإنسان التصرف بعمل ما حياله، بحيث يكون الإنسان مجبورا على القيام بذلك العمل الوحيد المتاح الذي خلقه الله، ولكن الله تعالى بعدله وإحسانه يخلق زمرة لا متناهية من الأعمال الممكنة والمتاحة مقابل ذلك الموقف المحدد، والإنسان، القادر على الاختيار في ذلك الموقف، بإرادته الحرة يختار من بينها ما يناسبه، أخذًا في الاعتبار جميع البيئات (الاجتماعية، الطبيعية) التي تكيف ذلك الموقف. ومن هنا تنبع أهمية نظرية الاختيار الراشد التي ندعو لبنائها، المؤسسة على العلم الذي يمكن من الكشف عن الخيارات الممكنة والمتاحة في كل شأن من شؤون المؤمن، على

المستوى الشخصي والجمعي، والمؤسسة أيضا على حرية الاختيار لدى الفرد بما يمكنه من اختيار أرشد الخيارات، وعلى الإرادة والقدرة على فعل الخيار الراشد الذي تم اختياره. وأرى، إن تمكن المسلمون من بناء هذا العلم، أن ذلك سوف يحدث ثورة في مجال مناهجنا التعليمية والتربوية وفي علومنا الاجتماعية، ثم، من الناحية العملية، ثورة في طريقة تصرفاتنا واتخاذ قراراتنا وبناء مؤسساتنا، وفي طريقة التعامل مع العالم من حولنا.

ولما كان الله تعالى هو أسرع الحاسبين، ولقد علم المستقدمين من الناس ولقد علم المستأخرين، فلقد كتب في أم الكتاب ما الناس فاعلوه وعاملوه باختيارهم مشوار عمرهم في هذه الحياة الدنيا، وما سوف تدخلهم فيه تلك الأعمال من سنن الله الجالبة للنفع وتلك الجالبة للضرر، وما يترتب على نفاذ تلك السنن مما يصيب الناس من نفع وضرر في معاشهم ومعادهم، ثم رفعت الأقلام وجفت الصحف، وهذا هو قضاء الله في الناس، ولا تجد لسنة الله تحويلا. ثم إن كل إنسان في هذه الحياة الدنيا لن يأتي إلا بالأفعال والأعمال التي اختارها في علم الله، وقضى الله له بها في أم الكتاب، وهو قدر الله في كل إنسان، ولا تبديل لكلمات الله. وهكذا لزمّت الناس حجة الله البالغة، ولخصت ما قلناه آيات بليغة في القرآن: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾) بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا تُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٦﴾ (الأنعام).

بعدُ آخر يتعلق بالإجابة عن القضية الشائكة وذو ارتباط بما سبقه هو مدى فعالية أسماء الله الحسنى وتمام نفاذ أثرها على الإنسان، إذ لا يتحقق ذلك على التمام إلا في الدار الآخرة حيث الملك الله الواحد القهار. إن "خطة الخلق العامة" تبين لنا أن الله تعالى خلق الناس خلقا يجعلهم قادرين على الإيمان وعلى الكفر به، وأن أهل الإيمان قادرون على عمل الصالحات طاعة لله، وقادرون أيضا على عمل السيئات معصية له. ورغم أن

مآلات هذه الأعمال، من المؤمنين والكافرين، في الدنيا تؤدي إلى أن تتكامل الأسماء المقدسة في نفاذ أثرها على الإنسان، نفعا وضرا، إلا أن تمام هذا النفاذ لأسماء الله المقدسة بسبب ذات هذه الأعمال لا يكون إلا في الدار الآخرة، حيث الجزاء الأبدي من جنس العمل الدنيوي. إن نفاذ أثر الأسماء المقدسة في الدار الآخرة على المؤمنين يختلف تماما عنه على الكافرين، رغم أنهم كانوا في الدنيا يشتركون في بعضها مثل الرحمة والانتقام. فالرحمة مشتقة من اسم الرحمن الذي سوف يكتمل نفاذ أثره ويقتصر على المؤمنين فقط في الآخرة. ولأن غالب المؤمنين سوف يكونون متقلين بالذنوب في الآخرة فإن تجليات الاسم المقدس "الرحمن" سوف تظهر حقيقتها تماما لكل الناس في ذلك الموقف العظيم حيث برزت الجحيم لمن يرى، وحيث يظهر ضعف الناس وافتقارهم إلى رحمة الله على أشده: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ١٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ٢١ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٢٢) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ٢٦) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ٢٧) (مريم). هناك يرحم الله تعالى كل من قال لا إله إلا الله ومات عليها، ويدخله الجنة، على تفاوت في الحساب لكل مؤمن، وقد ورد في الحديث الشريف: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَبِئْسَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ» (البخاري).

وكذلك الأمر بالنسبة لتجليات الاسم المقدس "المنتقم" حيث الانتقام في الآخرة يقتصر على الكافرين والمنافقين والمشركين فقط، ويظهر تمام نفاذ أثره في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبا.

نختتم الكلام في هذه القضية الشائكة باستنتاج يتعلق بعلم الأسماء الذي علمه الله تعالى لآدم عليه السلام، ودلالة ذلك على مستقبل الاستخلاف التوحيدي في الأرض، ذلك

أن عِلْمَ الأسماء كلها الذي علّمه الله تعالى كفاحاً لآدم عليه السلام لم يرثه عنه أبناؤه من بعده، وإنما خلقوا بالوسائل اللازمة لتحصيله (السمع، البصر، الفؤاد) عبر علم الخبر من السماء، أو علم المختبر بحثاً علمياً في الوجود، وتراكماً معرفياً. ولكن عبر تاريخ الاستخلاف الذي مضى في الأرض لم تتمكن البشرية مجتمعة من أن تحصل إلا على النزر اليسير من ذلك العلم الذي علّمه أبوهم، بحيث نستطيع القول بأنه لم يخلق وعياً معرفياً عند البشرية بآيات الله في الآفاق وفي الأنفس حتى يستبين لها أن الله سبحانه هو الحق، ومن ثم تنهياً نفسياً لقبول رسالات الأنبياء. ولعل هذه الحقيقة قد أسهمت بقدر كبير في المواقف المعادية للرسول والرسالات بما جعل الاستخلاف البشري على الأرض دنيوياً في مجمله. ولكن بعد بعثة محمد، صلى الله عليه وسلم، وعدّ الله تعالى بأنه سوف يُري الذين كفروا آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. ولا شك أن البشرية خلال القرن الماضي وفي هذا القرن وما يأتي من قرون تقترب من وعد الله تعالى هذا بسبب الكشوفات العلمية المتسارعة والمبهرة في الآفاق والأنفس، وبسبب التراكم المعرفي لهذا العلم ووصوله إلى كل أهل الأرض عبر الوسائط المعلوماتية المتعولمة. وهذا العلم الكوني المتسارع والمتراكم يتم توظيفه الآن بصورة منهجية معقولة من قبل المسلمين لتبيان الحق الذي جاء به القرآن الكريم، ومن ثم دعوة الناس إلى الإسلام على بصيرة.

إن البشرية الآن تسعى حثيثاً لتحصيل علم الأسماء الذي علّمه أبوهم آدم من قبل، وسوف تجد نفسها وجهاً لوجه مع الحق الذي في القرآن الكريم، فماذا هي فاعلة إزاءه، وقد قال الله تعالى من قبل: (أَمْرٌ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ۚ) (المؤمنون)؛ (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ

(الزخرف)؟

إنني أرى مستقبلا عظيما للاستخلاف التوحيدي في الأرض، حيث تتضافر الظروف لتحقيق ذلك، من بينها ما أشرت إليه من تراكم علم الأسماء وما سوف يؤول إليه من تبين الحق، مضافا إليه أن الناس من خلال العولمة يعودون تدريجيا أمة واحدة كما كانوا من قبل، من حيث الجغرافية والثقافة والمؤسسات والهموم والغموم المشتركة. إن العولمة المادية الجارفة تخلق أزمات وتصدعات نفسية عميقة على مستوى الأفراد في كل المجتمعات، وتتولد أجيال ليس لها ولاء لأفكار أو ثقافة بعينها، وبسبب التصدعات النفسية والفكرية الحالة بهم فسوف يكونون مهينين للنظر في كل ما يمكن أن يجعل للحياة معنى، ويحقق لهم سكينتهم النفسية وتماسكهم الفكري والاجتماعي. إن الإعراض عن ذكر الله جملة يقود، بمقتضى سنن الله الحاكمة للاجتماع الإنساني، إلى معيشة ضنكة يكون ضررها باهظا بحيث يجد الناس ألا مناص من الفرار إلى الله تعالى، ولن يكون أمامهم من خيار إلا الحق الذي جاء به القرآن الكريم. والغالب أن يتحقق هذا الاستخلاف التوحيدي من خلال انتشار التوحيد في غير أهل الكتاب (اليهود والنصارى) في قارتي آسيا وإفريقيا، والناس فيهما يمثلون غالب أهل الأرض، وليست لديهم عداوات مستديمة مع الإسلام. أما أهل الكتاب فالغالب فيهم أن يدخلوا الإسلام فرادى وتبقى شعوبهم ومجتمعاتهم على ملتها تحقيقا لقول الله تعالى: (وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة).

نخلص من ذلك إلى أنه رغم أن ما مضى من تاريخ الاستخلاف البشري في الأرض أكد الحقيقة التي ألمحت إليها الملائكة بشأن الإفساد فيها وسفك الدماء من قبل الخليفة المعلن، إلا أنه ربما أن ما سيأتي من مستقبل الاستخلاف سوف يؤكد الحقيقة الزائدة التي يعلمها الله تعالى فوق ما علمت الملائكة، حيث يتضافر علم الآيات الوجودي

في الآفاق والأنفس مع علم الوحي في القرآن والسنة النبوية ليحقق الإنسان استخلافه التوحيدي، على قاعدة سكانية وتكنولوجية هائلة، وينبسط في الأرض جميعاً (الأرضين السبع)، عبر حركة كونية يتوسل إليها بما سُخِّرَ له من أسباب السماوات والأرض، ناظراً في ملكوتهما ليعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) (الطلاق).

إنه استخلاف يتضاءل أمامه كل ما مضى من تاريخ البشرية على الأرض، إلا أنه استخلاف له شروطه: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور)؛ (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (يوسف).

2.4 - الإنسان الخليفة

الإنسان الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا هو حر مطلق التصرف فيما استخلف فيه، بل المطلوب منه أن يقوم بسياسة ما استخلف فيه (الأرض) وفق ما يحب ويرضى المستخلف (الله تعالى). لقد بينا فيما مضى من صفحات هذا البحث الكثير مما يتعلق بالخصائص الخلقية (الفطرية) التي تؤهل الإنسان لمهمة الاستخلاف في الأرض، كما بينت " خطة الخلق العامة " جوهر هذا الاستخلاف ومآلاته في الدنيا والآخرة منسوبا إلى تلك الخصائص الخلقية. لذلك نضرب الذكر صفحا

عنها هنا، ولكن نشير إلى أنّ الاستخلاف في أصله عام لكل الناس بمقتضى خطاب الله تعالى للملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، ولكن هناك من الناس من وعى حقيقة الاستخلاف من رسل الله تعالى فعلم أنه وكيل عن الله في الأرض، وأن هذه الوكالة لله سائله عن الوفاء بحقها، فإن وفى فله أجر يوفى إليه في الآخرة، يتفاوت الناس فيه بمقدار عملهم، ولهم على الله أيضا أن يحييهم حياة طيبة في هذه الدنيا: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾) (النحل). هذا الصنف من الناس هم أهل التوحيد الذين آمنوا بالله ورسله واتبعوا النور الذي أنزل معهم، ويتأسس على كسبهم في الأرض ما أسماه الاستخلاف التوحيدي، وتتأسس حقيقة الخليفة فيه على قاعدة المسلم الراشد بأوصافه التي ذكرها القرآن: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَنَ وَرَبِّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهِ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧٧﴾) (الحجرات)؛ وقد سماهم الله تعالى عباد الرحمن وفصل سماتهم. لذلك وعدهم الله تعالى بقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠٨﴾) (النور). وقال تعالى في شأن استخلافهم عند التمكين لهم في الأرض: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾) (الحج). ولن نبسط الحديث هنا لا عن الاستخلاف التوحيدي، ولا

عن نظيره الدنيوي، لأن ذلك لا يدخل في حدود البناء المفهومي للاستخلاف، وإن كان يتفرع عنه كموضوع مستقل.

ولكن بسبب طبيعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها فإنّ الغالب على تجربة الاستخلاف التوحيدية هو خلط العمل الصالح بآخر سيئ، ولما كان هناك أجر لمن قام بحق الوكالة فذلك هناك عقاب لمن قصر تقصيرا بينا في الوفاء بحقها، أو تعدّى، لذلك جاء الوعيد الإلهي: (وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٢٨﴾) (محمد)، وجاء التنبيه النبوي: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَصِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» [صحيح مسلم 4 / 2098].

صنف آخر من الناس لم يع حقيقة أنه في الأرض وكيل، وظن أنه أصيل مطلق التصرف فيها، إما لأن خبر السماء لم يصله وإما أنه وصله ولكنه أنكره، طغيانا وكفرا: (كَأَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿١﴾ أَنْ رَّأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٢﴾) (العلق). ويتأسس على كسب هؤلاء ما أسمىه الاستخلاف الدنيوي، وتتأسس حقيقة الخليفة فيه على قاعدة الدنيوي الفاجر بأوصافه التي وصفها القرآن: (أَمْ حَسِبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٤﴾) (الفرقان)؛ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ ﴿١٢﴾) (محمد). ولما كان هذا هو الاستخلاف السائد عبر تاريخ التجربة البشرية على الأرض، فقد خاطب القرآن الناس بهذا الشأن: (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣﴾) (الأنعام)؛ (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ

بِأَخْرَيْتَ^٩ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٢﴾ (النساء)؛ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ^ص
وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٣٣﴾ (الأعراف).

هذان الصنفان من الخليفة ظلا عدوين لبعضهما يتدافعان في هذه الأرض، سلما
وحربا، وما كان للأمر أن يكون غير ذلك لمن تفكّر في "خطة الخلق العامة"، وتدبر آيات
الله البينات في هذه العلاقة التفاعلية: (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ
وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ^ط وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ (البقرة)؛ (الَّذِينَ
أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ^ط وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ هُدًى مَّتَّ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا^ط
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ^ط إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ (الحج).^٩

3.4 - الأرض المستخلف فيها

الأرض تشمل الكرة الأرضية، يابسة وماء وغلافا جويًا، وهي بهذا تحديدا المكان
الجغرافي الذي انحصرت فيه خلافة الإنسان: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٢٠﴾) (البقرة)؛ (قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ^ط
وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٥٠﴾) (البقرة)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِمَّا تَخْرُجُونَ ﴿٢٥١﴾) (الأعراف). ولكن

^٩ - يمكن الرجوع في تفصيل طبيعة هذا التدافع والأشكال التي يتخذها إلى بحثي بعنوان: رؤية القرآن للعالم ودلالاتها
على أولويات المشروع الإسلامي في السودان (2011)؛ مجمع الفقه الإسلامي السوداني، الخرطوم.

الأرض ليست كوكبا مستقلا عن بيئته الكونية، بل إن صلاحها للاستخلاف، واستدامة هذا الصلاح، رهين باستدامة تفاعلها مع بيئتها الكونية، القريبة منها (المجموعة الشمسية) والبعيدة (المجرات وما وراءها): (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق).

والأرض كما وردت في القرآن الكريم ليست كوكبا واحدا هو هذا الذي نعيش فيه، بل هي سبعة أرضين كما تبين الآية السابقة. وهي سبع أرضين متماثلة بيئيا وفي الغرض منها، وهو استخلاف الإنسان فيها: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة).

وبسبب هذا التماثل نجد أن كلمة أرض لم تُجمع قط في القرآن الكريم كما تُجمع كلمة السماء، رغم إمكان ذلك من حيث التصريف اللغوي، بل ترد دائما مفردة مضافا إليها كلمة "جميعا" لاستقصاء عددها، مقابل ذكر السماوات بصيغة الجمع غالبا، وذكر عددها أحيانا: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ^{١٠} سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر)؛ (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ^{١١} إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية). ولي بحث بعنوان "الحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم"¹⁰ دللت فيه من القرآن الكريم على صحة الفرضيتين الآتيتين، وهما يتعلقان بحقيقة الأرض واستخلاف الإنسان فيها:

¹⁰ - أنظر البحث بالعنوان أعلاه في موقعي بالإنترنت (biraima.net)

الفرضية الأولى:

الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في السماوات السبع،
وجميعها مستخلف فيها الإنسان.

الفرضية الثانية:

سوف يبلغ الإنسان بعلمه وعمله جميع المتماثلات من الأرض
في السماوات السبع ليحقق مغزى الاستخلاف العمراني عليها
قبل قيام الساعة.

وبسبب هذا التفاعل الكوني فإن الإنسان المستخلف في الأرض مهياً بالفطرة، فهو
طلّعة، ومأذون له بالعلم، من أجل القيام بحق الاستخلاف، أن يجوب أقطار السماوات
والأرض مستكشفاً، ولكن دون أن ينفذ منها: (يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ
تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا^{١١} لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ^{١٢} فَبِأَيِّ
ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ^{١٣} يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ^{١٤}
(الرحمن).^{١٥}

أنشأ الله تعالى الإنسان من الأرض واستعمره فيها: (وَالِى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا^{١٦}
قَالَ يَنْقُومِ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ^{١٧} هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعمركم فيها
فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ^{١٨} إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ^{١٩})(هود). هذا الاستعمار للإنسان في الأرض
يقوم على مبدأ الاستخلاف؛ والخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مطلق التصرف فيها كما
يشاء، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة؛ بل يعمل، طوعاً دون إكراه، بأمر

¹¹ - أنظر تحليلنا للمضمون العلمي لهذه الآية الداعم لوجهة نظرنا هذه في بحثنا المشار إليه.

المستخلف (الله) فيما استخلف فيه (الأرض)؛ ليحقق مغزى خلقه واستخلافه، ألا وهو عبادة الله تعالى، تكليفاً يتأسس على الإرادة الحرة للإنسان؛ فمن شاء آمن ومن شاء كفر.

جعل الله تعالى ما على الأرض من زينة (المال، البنون) شهوة وفتنة يبتلي بها الإنسان لتحقيق بها إرادته الحرة؛ فلما إيماناً يؤدي إلى عمارة الأرض بالعمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، شكراً يزيد النعمة ويديمها، ويحقق الحياة الطيبة في هذه الدنيا، والجزاء بأحسن ما كان يعمل في الآخرة؛ وإما كفراً تحول به النعمة إلى نقمة ومعيشة ضنكا، ويظهر في الأرض الفساد، وتؤول آخرته إلى بوار. وقد بينا طبيعة هذا الابتلاء تفصيلاً في القسمين الأول والثاني من هذا البحث.

رفع الله تعالى السماء ووضع ميزاناً لكل شيء في هذا الوجود، ومن ذلك ميزان الأرض: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾) (الرحمن)؛ (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿١٠﴾) (القمر)؛ (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾) (الفرقان). ولقد أنبت الله تعالى في الأرض من كل شيء موزون، بما في ذلك الإنسان الذي أنبته الله من الأرض نباتاً: (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٢﴾) (الحجر)؛ (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٤﴾) (نوح).

الميزان في الأرض يزن ويضبط التفاعلات التي تجري على الدوام في ثلاث بيئات رئيسية: البيئة النفسية للإنسان؛ البيئة الاجتماعية للإنسان؛ البيئة الطبيعية لكل المخلوقات الأرضية، بما في ذلك الإنسان. ولما كانت جميع هذه البيئات متداخلة ويعتمد بعضها على بعض فإن إقامة الوزن بالقسط في البيئة النفسية شرط لازم لإقامته بالقسط في البيئة الاجتماعية، وإقامة الوزن بالقسط في البيئة الاجتماعية شرط لازم لإقامته بالقسط في البيئة الطبيعية.

قدّر الله تعالى في الأرض أقاتها بميزان دقيق، سواء للسائلين من مخلوقاته، ويشمل ذلك الإنسان: (قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُـَٔ أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينَ ﴿١٠﴾) (فصلت). ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان الخليفة مسئولاً عن إقامة هذا الميزان الدقيق في الأرض. لكن الإنسان، الذي رُيِّن له حب الشهوات في "المال" و"البنين"، قادر، بهواه وبغير هدى من الله، أن يطغى ويخسر هذا الميزان. لذلك أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان (الشريعة) لتعين الناس، إن التزموها، على إقامة الوزن بالقسط في كل البيئات الثلاث. هذا الالتزام بميزان الشريعة هو الذي يمكّن الإنسان من أن يأتي بتلك الأعمال التي تحقق الشكر لله على نعمته؛ والشكر هو حقيقة العبادة لله تعالى في هذه الأرض؛ وهو الضامن لاستدامة النعمة، واستدامة صلاح الأرض ومنع الفساد فيها.

إن عدم التزام الإنسان بميزان الشريعة الربانية أدى إلى إفسار الميزان في البيئة النفسية بطغيان ملهات الفجور عليها؛ وطغيان ملهات الفجور أدى إلى التجاوز في متاع الحياة الدنيا (المال، البنون)، ترفاً وسرفاً وتبذيراً لدى فئة من الناس، وفقراً ومرضاً وجهلاً لدى فئة أخرى، مما أدى إلى إفسار ميزان البيئة الاجتماعية، تظالماً وتعاوناً على الإثم والعدوان. أدى ذلك، ضرورة، إلى إفسار ميزان البيئة الطبيعية، فظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. إن الفساد الذي عمّ الأرض بعد إصلاحها من خالقها، لا سبيل إلى وقفه ثم عكسه وإعادة الصلاح إليها إلا بالرجوع إلى الميزان الإلهي وإقامة الوزن بالقسط في جميع البيئات الثلاث: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥١﴾) (الروم)؛ (وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٥٢﴾) (إبراهيم)؛ (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۚ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿٥٣﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ

أَكُلْ حَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ (سبأ).

4.4 - مجال الاستخلاف وحقيقته وسننه

استخلاف الإنسان على الأرض مجاله زينة الحياة الدنيا (المال، البنون)، وحقيقته عمارة الأرض تأسيساً على قاعدة ميزان الشريعة الربانية، وهو: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل)، تحقيقاً لمصالح الدنيا والآخرة، ودرءاً لمفاسدهما، ومن ثم يتحقق مغزى العبادة، شكراً لله المنعم، شكراً يديم النعمة ويزيدها. وهذا الاستخلاف التوحيدي يتحقق من خلال إقامة الدين، شرعة (مقاصد) ومنهاجا (وسائل).

هذا هو الاستخلاف العمراني المطلوب ديناً من الإنسان الخليفة، وقد سميته من قبل الاستخلاف التوحيدي، ولكن بحكم طبيعة "خطة الخلق العامة"، المؤيدة بالتجربة التاريخية للبشرية على الأرض، فإن العمران غالباً ما يتأسس على اتباع الهوى والشهوات، وهو ما أسميته بالاستخلاف الدنيوي، لذلك قال الله فيه: (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَلْسَلَهُ يَسْرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾) (عبس).

العمران في الأرض، بشقيه التوحيدي والدنيوي، يتم من خلال التفاعل العظيم بين المتغيرات السبعة الضرورية المنتجة للظاهرة الاجتماعية في جميع تمظهراتها عبر التاريخ والجغرافية (الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم التوحيدي، الهوى، المال، البنون)، كما بينا ذلك في "خطة الخلق العامة" تفصيلاً. وهذا التفاعل الاستخلافي يحكمه على مستوى الفعل الاجتماعي مبدعان سلوكيان هما، مبدأ تعظيم الإيمان من خلال تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، ومبدأ تعظيم المتاع الدنيوي من خلال تعظيم العمل السيئ في زينة الحياة الدنيا. كذلك يحكم هذا التفاعل على مستوى الميزان الإلهي سنن اجتماعية

لا تتبدل ولا تتحول. فهناك سنن الله الجالبة للنفع بإذن الله، وهي ترتبط عادة بالأعمال الاجتماعية المحققة لمبدأ تعظيم الإيمان الذي يتأسس علي نفاذ أثره الاستخلاف التوحيدي، ومن هذه السنن الآتي:

سنة الشكر: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿١٤٥﴾) (إبراهيم)؛ سنة الهداية: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾) (العنكبوت)؛ ومنها سنتي الفرج والحسب: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٥٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢٥٩﴾) (الطلاق)؛ ومنها سنة الحياة الطيبة: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾) (النحل)؛ ومنها أم السنن الاجتماعية، وهي سنة الابتلاء والفتنة: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٥١﴾) (هود)؛ (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠٠﴾) (الملك)؛ (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُورُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨١﴾) (الأففال)؛ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٠٨﴾) (الأنبياء)؛ (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠٥﴾) (الفرقان)؛ ومنها سنة النصر: (يَنَاقِظُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٥٠﴾) (محمد)؛ ومنها سنة التدافع: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾) (البقرة).... الخ.

وهناك سنن الله الجالبة للضر بإذنه، وهي ترتبط بالأعمال الاجتماعية المحققة لمبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، ومنها ما يلي:

سنة الكفر: (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٥٠﴾) (إبراهيم)؛ ومنها سنة المعيشة الضنكة: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾) (طه)؛ ومنها سنة تقييض الشيطان: (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٦٠﴾) (الزخرف)؛ ومنها سنة الاستدراج: (أَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ

وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ (المؤمنون)؛ ومنها سنة الإحاقة: (أَسْتَكْبَرًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ) (فاطر)؛ ومنها سنة المحق: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٦٧﴾) (البقرة)؛....الخ.

ومن رحمة الله بعباده أن الناس يمكنهم الفرار، بأعمالهم، من سنن الله الجالبة للضرر إلى سنن الله الجالبة للنفع، قبل فوات الأوان؛ أي الفرار من قدر الله إلى قدر الله، كما هو معلوم من قصة أمير المؤمنين عمر الفاروق، رضي الله عنه، في موقفه من وباء الطاعون الذي أصاب بعض ديار المسلمين في عهده: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (الذاريات). ولأن سنن الله الاجتماعية مرهون تحققها بأعمال الناس الإرادية الراتبة، ولأن هذه الأعمال هي في حال تغير دائم بين الصلاح والفساد، على مستوى الفرد والجماعة، وقد تغلب أعمال الصلاح أحياناً، وقد تغلب أعمال الفساد، من حيث الكم والنوع، ولما كان تقدير كل ذلك علمه عند الله تعالى، فإن معرفة زمان ومكان ومدى تحقق هذه السنن، وما يترتب علي ذلك من مصالح أو مفاصد تصيب الناس، أمر يعسر ضبطه علمياً، ولعل هذا من رحمة الله بالناس حتى لا يأمنوا مكره، بل يكونوا في حال من الترقب والحذر الدائم: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾) (الأعراف).

ولكن أحوال الأفراد والمجمعات، والمصائب التي تصيبهم، أو تحل قريباً من دارهم، أو البركات التي تفتح عليهم من السماء والأرض، آيات تؤثر على اتجاه عمل تلك السنن، وفي هذا الإطار يأتي دور العلوم الاجتماعية في دراسة تلك الأحوال والظواهر الاجتماعية، وربطها بأعمال الناس الراتبة (Regularities)، وتصنيف هذه الأعمال من حيث

صدورها عن الاستخلاف التوحيدي، أو الاستخلاف الدنيوي، وربطها من ثم بما يناسبها من السنن الاجتماعية المستنبطة من الوحي، أو من التاريخ(الواقع الاجتماعي)، بغرض استخلاص الآيات والعبر، ووضع السياسات الشرعية وتوفيق الأوضاع الاجتماعية، بما يؤدي إلى استدامة الصلاح، أو تدارك الفساد. إن الوحي الكريم، قرآنا وسنة، ثري بالسنن الاجتماعية الإلهية التي تغطي جميع جوانب هذا التفاعل الاستخلافي العظيم، ويجب استخلاص تلك السنن وتصنيفها والإفادة منها في تأسيس العلوم الاجتماعية الإسلامية.

تم بحمد الله